

من تاريخ الحركة العمرانية بفلسطين في العهد المملوكي

عمائر الظاهر بيبرس: الخلفيات

والأبعاد - خان الظاهر بالقدس*

عمر موسى مشعل*

تسير جنباً إلى جنب مع إصلاحات تنموية وإنجازات
عمرانية وتنظيمات إدارية وعناية بمختلف المؤسسات،
فتعمير الظاهر بيبرس لم يقتصر على بناء مسجد هنا
أو جسر هناك، وإنما شمل أيضاً إعادة بناء مدن بكاملها،
كصفد والرملة وقاقون، وتزويد هذه المدن بمختلف
المرافق: من أسوار ومساجد ومنشآت مائية وخانات
ومقرات للحكم وللعسكر، ومن ثم تشجيع الناس على
السكن في هذه المدن، وذلك ضمن منهج إداري قويم
وخطة تنموية إصلاحية شاملة، تعبر عن رؤية بصيرة
وإخلاص وإدراك لدور الحاكم والمسؤول تجاه الرعية.
ويعتبر خان الظاهر أو خان السبيل من تعميرات الظاهر
بيبرس البارزة، وهو منشأة عظيمة ومؤسسة خيرية رائدة
في تاريخ القدس وفلسطين.

كان ذلك كله في وقت لا تزال فيه أجزاء من الساحل
الفلسطيني، ومن بلاد الشام عموماً، في قبضة الفرنجة،
وكان بإمكانه أن يعفي نفسه، فلديه من المبررات
والحجج ما يكفيه، فجيهاً القتال متعددة، والأعداء
المتربصون كثر، ولكن نفسه تأبى ذلك، وبهذه المقاييس
تخلد الشخصيات ويدوم ذكراها.^١

عمائر الظاهر بيبرس في فلسطين

يعتبر العهد المملوكي في فلسطين من أزهى فتراتها
التاريخية، التي تعاقب على الحكم فيها، عدد من الملوك
العظام أمثال بيبرس والمنصور قلاوون، وابنه الأشرف
خليل، والناصر محمد وبرقوق وغيرهم. وشهدت فلسطين
نهضة عمرانية وحركة ثقافية مزدهرة، تمثلت فيما
شهدته من مشاريع ومؤسسات اجتماعية متنوعة، هدفها
توفير متطلبات الحياة اليومية وتحسين أوضاع الناس
وأحوالهم المعيشية. وأقيمت لذلك أبنية شتى، شملت
الخانات والمدارس والجسور والحمامات والأسواق
والخوانق والتكايا والمنشآت المائية وغيرها، التي لا
تزال آثارها تشاهد في مختلف أنحاء فلسطين.^٢ وللملك
الظاهر بيبرس، ناهيك عن بطولاته الحربية وانتصاراته

تهدف هذه الدراسة إلى تتبع الخلفيات والتطورات
التاريخية للأعمال والتعمير، بأبعادها الحضارية والثقافية
والاجتماعية، وتهدف أيضاً إلى تسليط الضوء على عناصر
الموضوع ومكوناته ضمن نسيج الحياة اليومية، ومنظومة
الحياة الاجتماعية للسكان، وارتباطاتها المتعددة بواقع
الحياة ومؤسساتها الرسمية والدينية، ومنظومة القيم
والثقافة السائدة، وعادات الناس ومتطلباتهم وحاجاتهم
في فلسطين عموماً، وبيت المقدس خصوصاً. ستبرز
الدراسة أيضاً الاهتمام الرسمي، على مستوى المؤسسة
الحاكمة والإدارات المحلية المتفرعة عنها، بمتابعة هموم
الناس ومشكلاتهم وتلبية حاجاتهم وأنشطتهم المتنوعة،
سواء ما له علاقة بالسفر والارتحال، أو الفرح والاحتفال،
أو الشرب والطعام، أو العبادة والزيرة، أو الحج والتجارة
وغيرها. وذلك باستعراض مرحلة تاريخية تمتد من
النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي فصاعداً،
ويتتبع الأعمال العمرانية والأنشطة الوقفية والخيرية
للسلطان المملوكي الظاهر بيبرس (١٢٦٠-١٢٧٧)، تلك
الشخصية التي كان لها بصمات وإنجازات، قل نظيرها
في التاريخ العربي الإسلامي.

بقي الظاهر بيبرس في الحكم سبعة عشر عاماً،
أمضى أكثر من نصفها مقاتلاً في ميادين المعارك،
يقضي على الفتن الداخلية، ويفتح المدن ويحقق
الانتصارات، فنجح في ذلك نجاحاً كبيراً. واللافت للنظر
أن تلك الإنجازات العسكرية والفتوحات الظاهرية كانت

١ للمزيد حول شخصية بيبرس وأعماله، أنظر للباحث: «الظاهر
بيبرس: أضواء على حياته وإنجازاته وبطولاته» في مجلة
الإسراء، دار الفتوى والبحوث الإسلامية في القدس ع. ١٩٩٧م،
ص ٨١-٩١.

٢ مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء التاسع (في
ديار الجليل)، بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٨، ص ٦٥؛ وللمزيد
حول الموضوع، أنظر: خليل عنامنة، فلسطين في العهدين
الأيوبي والمملوكي (١١٨٧ - ١٥١١)، بيروت: مؤسسة الدراسات
الفلسطينية، ٢٠٠٦، ص ٤٠١ - ٤٤٠.

* باحث في التاريخ والتراث.

١- جدد ما كان قد تهدم من قبة الصخرة: وبحسب ابن كثير فإنه رُمِّمَ سقفها، وجدد قبة السلسلة وقام بزخرفتها، ووفقاً لما جاء في **الأنس الجليل** لمجير الدين الحنبلي (ت ٩٢٧ هـ / ١٥٢١ م) فقد اعتنى الظاهر بعمارة الأقصى، فجدد فصوص قبة الصخرة، وبعث الصناع والحرفيين والأدوات والآلات اللازمة، لإعمار قبة الصخرة. وذلك في أعقاب زيارته الأولى لمدينة القدس سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م، المدينة التي أحبها وحرص على خدمة أهلها وتنشيط الحياة فيها، وقد جاء في **الروض الزاهر**، أنه تم إنجاز عمارة قبة الصخرة الشريفة سنة ٦٧١ هـ.^٧



مقام النبي موسى.

٢- أنشأ خاناً للسبيل خارج أسوار مدينة القدس في الجهة الشمالية الغربية سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م وهو الخان الذي اشتهر باسمه وبني فيه مسجداً وطاحوناً وفرنناً.^٨ (وهو الخان الذي سنتحدث عنه بالتفصيل في الصفحات القادمة).

٣- وفي سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ أصدر الظاهر مرسوماً سلطانياً بعمارة مسجد الخليل عليه السلام، فأرسل الأمير جمال الدين بن نهار من القاهرة إلى الخليل، وكان مهندساً بارعاً، لإنجاز هذا المشروع، وبقي هناك حتى أنهى عمارته.^٩ شمل هذا المشروع تجديد القبة وترميم ما تهدم من أجزاء المسجد وإصلاح أبواب المسجد والميضأة ودهان الجدران والسقف، وتجديد الأخشاب والمقاصير، بالإضافة إلى تجديد الأضرحة الشريفة، كما قام بزيادة النفقات عليه وزيادة رواتب قوامه ومؤذنيه، كما رتب للمسجد مالاً ينفق على الزائرين والمقيمين،^{١٠} ولأجل ذلك

العظيمة، أعمال عمرانية زاهرة شملت مختلف أنحاء دولته، وتحديداً فلسطين التي خصها بمجموعة متميزة منها.^٢

يقول ابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) عن عمائر الظاهر بيبرس ومنتشأته: «بني في أيامه بالديار المصرية (الدولة المملوكية) ما لم يُبْنِ في أيام الخلفاء المصريين (الفاطميين) من الأبنية والرباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات».^٤ كما قام الظاهر بترميم لأشهر مساجد المسلمين ومقدساتهم كالمسجد النبوي وقبة الصخرة والحرم الإبراهيمي والجامع الأزهر، وكان حظ فلسطين من هذه العمائر والتجديدات كبيراً، فقد أنشأ فيها المساجد والمزارات والجسور والخانات، ووسّع المدن والقرى وبنى الأسوار، وجدّد بناء بعض القلاع والمنتشآت.^٦ وفيما يلي استعراض مختصر للعمائر والتجديدات التي قام بها الظاهر بيبرس في فلسطين:

- ٧ ابن تغري بردي. **النجوم الزاهرة**، ج ٧، ص ١٩٤: الكتبي. مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٢٤٣: مجير الدين الحنبلي. مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٨٨: المقرئ. **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج ١، ق ٢، (صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة). القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٧: ص ٤٤٥، ص ٤٩١: عارف العارف. **المفصل في تاريخ القدس**. القدس: مكتبة الأندلس، ١٩٦١، ص ١٩٨: ابن كثير. مصدر سبق ذكره، ج ١٣، ص ٣٠٧: محيي الدين بن عبد الظاهر **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر** تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦، ص ٤١٦.
- ٨ المقرئ. **السلوك**، (ج ١، ق ٢)، ص ٤٩١ و ص ٥٢٢: ابن تغري بردي. **النجوم الزاهرة**، ج ٧، ص ١٩٤: الكتبي. **فوات الوفيات**، ج ١، ص ٢٤٣: مجير الدين الحنبلي. **الأنس الجليل**، ج ١، ص ٨٧.
- ٩ المقرئ. **السلوك**، ج ١، ق ١، ص ٥١٣.
- ١٠ ابن تغري بردي. **النجوم الزاهرة**، ج ٧، ص ١٩٤: الكتبي. **فوات الوفيات**، ج ١، ص ٢٤٣: مجير الدين الحنبلي. **الأنس الجليل**، ج ١، ص ٨٨: ابن عبد الظاهر **الروض الزاهر**، ص ٢٨٧: ابن كثير. **البداية والنهاية**، ج ١٣، ص ٣٠٧.

٢ كامل جميل العسلي. **وثائق مقدسية تاريخية**، الجزء الثالث، عمّان: منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٨٩، ص ١١٧.

٤ ابن تغري بردي. **النجوم الزاهرة بتاريخ مصر والقاهرة**، الجزء السابع، القاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، ص ١٩٦.

٥ المصدر السابق، ص ١٩٤ - ١٩٥: ابن شاکر الكتبي. **فوات الوفيات**، المجلد الأول، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٧٣، ص ١٩٤ - ١٩٥: مجير الدين الحنبلي. **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، عمّان: مكتبة المحتسب، ١٩٧٣، ج ٢، ص ٨٨ - ٨٩: ابن كثير. **البداية والنهاية**، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، القاهرة، ٢٠٠٢، ج ١٣، ص ٣٠٧.

٦ الدباغ، مصدر سبق ذكره ج ٩، ص ١٦: ابن كثير. مصدر سبق ذكره ج ١٣، ص ٣٠٧: المصادر في الحاشية ٤، الصفحات نفسها.



صورة قديمة لجسر جنساس الذي بناه بيبرس قرب الرملة.

٤- بنى قبة ومسجداً على قبر سيدنا موسى عليه السلام، على الطريق بين القدس وأريحا عند الكتيب الأحمر، وذلك سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م، عندما كان عائداً من الحج، فخرج إلى فلسطين لزيارة بيت المقدس.^{١٢} ويصف مجير الدين الحنبلي المقام: «وعليه بناء وداخله مسجد وعن يمينه قبة، معقوداً بالحجارة وفيها ضريحه...، والذي بنى القبة المذكورة الملك الظاهر بيبرس رحمه الله عند عودته من الحج، و زيارته بيت المقدس سنة ٦٦٨هـ (١٢٦٩)، ثم بنى بعده أهل الخير وزادوا زيادات في المسجد وحوله فحصل النفع بذلك للزائر. ثم في سنة ٨٧٥هـ (١٤٧٠م) وسَّع داخل المسجد من جهة القبلة، ولم تكمل عمارته إلى سنة ٨٨٥هـ (١٤٨٠م)».^{١٣}

الأمير جمال الدين بن (نهار الصالحي المهندار)، ووفقاً لما أورده ابن كثير في **البداية والنهاية** أنه عندما تمت عملية البناء، اضطرب بعض أركانه، فقلق السلطان من ذلك وأمر بتأكيده (أي تدارك الأمر وإصلاحه)، فلم يستطيعوا من قوة جري الماء حينها، فاتفق بإذن الله أن انسالت على النهر أكمة من تلك الناحية، فسكن الماء بمقدار أن أصلحوا ما يريدون، ثم عاد الماء كما كان وذلك بتيسير الله وعونه ورعايته العظيمة.^{١٤} ويروي ابن عبد الظاهر في **الروض الزاهر** أنه في شعبان من سنة ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م أصدر السلطان مرسوماً بعمارة

٥- أنشأ الظاهر جسوراً عديدة في المنطقة الساحلية وفي منطقة الأغوار، لتسهيل حركة مرور الناس والعساكر، وهذا ما يؤكده ابن كثير (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) في **البداية والنهاية** فالظاهر قد أصدر تعليماته في سنة ٦٧١هـ / ١٢٧٢م ببناء عدة جسور في المنطقة الساحلية، ورصد لها الأموال الوفيرة،^{١٥} ففرح الناس بها واستبشروا، لأنها سهلت عليهم تنقلهم وارتحالهم، وخففت من مشقة السفر، ووفرت لهم الأمن ومتطلباته. وأشهرها جسر دامية الذي بناه الظاهر بيبرس سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م، على نهر الأردن، في الموقع الذي يتوسط قريتي قراوى ودامية، وأوقف عليه وقفاً من أجل الصرف على صيانيته وترميمه، وقد أوكلت مهمة الأشراف على هذا المشروع الحيوي وإنجازه إلى الأمير جمال الدين محمد بن بهادر (نهار)، وبدر الدين محمد بن جمال والي نابلس، وقد ذكر محيي الدين بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢) في **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، أن الظاهر بيبرس أصدر مرسوماً، في جمادى الأولى سنة ٦٦٤هـ، ببناء جسر على نهر الشريعة (الأردن)، يتألف من خمس قناطر، وجرى تجهيز ما يحتاجه البناء من مواد وأدوات في دمشق، وأن مهمة البناء أوكلت إلى

١٥ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٣، ص ٢٧٧ و ٣٠٦-٣٠٧: ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ٧، ص ١٩٤: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج ١، ص ٢٤٣: محيي الدين بن عبد الظاهر، **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦، ص ٢٤٦.

قراوى: قال عنها ياقوت الحموي: «قرية بالغور من أرض الأردن يزرع بها السكر الجيد. رأيتها غير مرة». وتقع قريباً من نهر الأردن، لجهة الغرب. في غور الفارعة. أنظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠، الجزء الرابع، ص ٣١٢: محمد شراب، **معجم بلدان فلسطين**، دمشق: دار المأمون للتراث، ١٩٨٧، ص ٥٧٥-٥٧٦.

دامية: تقع قرية دامية على الضفة الشرقية لنهر الأردن في الغور الذي يحمل اسمها، الذي يقع إلى الجنوب من نهر الزرقاء. تنخفض ٢٩٣ متراً عن سطح البحر، وتبعد مسافة قليلة عن النهر والجسر الذي حمل اسمها. ويعتقد البعض أن أدام أو أدامى القديمة. كانت تقوم على تل دامية، غربي البلدة، وذكرها ياقوت أنها من ديار قضاة. وتتبع دامية إدارياً لواء دير علا في الأردن. أنظر: **معجم البلدان**، ج ١، ص ١٥٢، منير الزيب، **معجم أسماء المدن والقرى في بلاد الشام الجنوبية**، دمشق: دار العرب، ٢٠١٠، ص ٣٢٤: شراب، **معجم بلدان فلسطين**، ص ٣٧١، www.alghad.com. جسر دامية: يسمى الآن جسر الأمير محمد. يصل بلاد نابلس ببلاد السلط. أو أنه يصل أراضي غور الفارعة بشرق الأردن، وما زالت أنقاض الجسر الذي بناه الظاهر بيبرس موجودة. أنظر: شراب، **معجم بلدان فلسطين**، ص ٥٧٦، ٢٥٨.

١١ المقريزي، **السلوك**، ج ١، ق ١، ص ٤٤٥.

١٢ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ٧، ص ١٩٤: الكتبي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٢٤٣: مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل**، ج ٢، ص ٨٨.

١٣ مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل**، ج ٢، ص ١٠٢.

١٤ الكتبي، **فوات الوفيات**، ج ١، ص ٢٤٠ - ٢٤٣: ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ٧، ص ١٩٤: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٣، ص ٢٩٥.

٦- إعادة بناء مدينة صفد وقلعتها: أمر بيبرس بتدمير قلعة صفد بعد أن استولى على المدينة سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م، إلا إنه عاد في العام التالي وأعاد بناءها وتعميرها ليتخذها مركزاً متقدماً للهجوم على الفرنجة في الساحل الفلسطيني في أعماله الحربية المقبلة،^{١٩} الأمر الذي أدى إلى تكوين أول نيابة في فلسطين وهي نيابة صفد التي تولى نيابة السلطنة فيها الأمير عز الدين العلائي.^{٢٠} وقد تمثلت إعادة بناء المدينة في تجديد قلعتها وتحسينها، فتم تجديد باشورة القلعة وإضافة أبراج وبدنات لها، بالإضافة إلى بناء دعائم مصفحة حول الباشورة، وأنشأ بالقلعة صهريجاً كبيراً مدرجاً من جهاته الأربع، يشتمل على برج مرتفع، وكان هذا الصهريج عميقاً جداً بحيث جرى استخدام تقنية ميكانيكية مبتكرة لرفع الماء من البئر، أثارت انتباه شيخ الربوة الدمشقي، فقام بوصف العملية بشكل دقيق، معبراً عن إعجابه بها، وختم وصفه بأنها من عجائب الدنيا. وتم بناء دار لنائب السلطنة ورباطاً وحمامين.^{٢١} ولتنظيم عملية الإعمار تم توزيع مهمات العمل على الأمراء من دون أن يستثنى بيبرس نفسه من هذه الأعمال، فقد حمل بيبرس الحجارة بنفسه وقام بنقل

جسرين في المنطقة الساحلية قريباً من الرملة، لعبور العساكر، ويذكر أن المواد اللازمة لهذا المشروع أحضرت من مناطق متنوعة حتى تم إنجاز هذا المشروع الحيوي والمهم.^{١٦} إن هذا الوصف الذي ذكره ابن عبد الظاهر ينطبق على الجسر المعروف حالياً بجسر جنداس الواقع على أراضي جنداس شمالي اللد فوق مجرى الوادي الكبير الذي يعرف اليوم بوادي أيلون. نسب الجسر إلى أراضي جنداس، ويبلغ طوله ٣٠ متراً وعرضه ١٢ متراً وارتفاعه ٦,٥ متر، ويتألف من ثلاثة قناطر (أقواس)، ويوجد على القنطرة الوسطى نقشان يؤرخان البناء ويبرزان اسم الظاهر وشعاره الأسد المحفز، ويعد هذا الجسر الذي يبعد نحو ميلين عن اللد أجمل الجسور في فلسطين،^{١٧} كان الجسر بالإضافة إلى تسهيل تنقل السكان والمسافرين، طريقاً لمرور الجيش المملوكي بعد أن أصبحت مدينة اللد قاعدة مملوكية مهمة.^{١٨} إن اهتمام الظاهر وحرصه على إقامة الجسور والقناطر يعكس حالة متقدمة من الوعي والاهتمام الرسمي، الذي يلبي حاجة الدولة نظاماً ومواطنيها، واستطاع بحكمته هذه أن يرسخ سياسة في الإدارة والحكم لها أبعادها الحضارية والعمرانية، وخصوصاً في مجال الاهتمام المميز بشبكة الطرق والمواصلات، وهي سياسة حرص عليها من جاء بعده من سلاطين. ومن هنا، فلا غرابة أن يعتبر الظاهر بيبرس المؤسس للدولة المملوكية.

١٩ سعيد عبد الفتاح عاشور. الظاهر بيبرس. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة. وزارة الثقافة والإرشاد القومي. لا تاريخ. ص ١٧.

٢٠ الموسوعة الفلسطينية - القسم العام. دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية. ١٩٨٤. المجلد الأول. (مادة الإدارة). ص ١٢٠ - ١٢١.

٢١ ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة. ج ٧. ص ١٩٥: الكتيب. فوات الوفيات. ج ١. ص ٢٤٤: أحمد يوسف الحسن. التقانة في فلسطين في القرنين ١٢ و ١٣ للميلاد. في كتاب: الصراع الإسلامي - الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى. تحرير هادية شكيب دجاني وبرهان الدجاني. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية. ١٩٩٤. ص ٥٣١. ص ٥٣٦.

وحول البئر أو صهريج الماء الذي بناه الظاهر بيبرس في صفد. يقول شيخ الربوة الدمشقي: «وتحت كله (المقصود مبنى القلعة) بئر للماء من الشتاء. يكفي لأهل الحصن من الحول إلى الحول وبهذا الحصن بئر تسمى الساتورة. وعمقه ١١٠ أذرع في ٦ أذرع بذراع النجار وهي من عجائب الدنيا. فإذا وقف واقف وتكلم كلمة واحدة في رأس البئر. سمع رجح صوته بتلك الكلمة نازلاً نحو لحظة جيدة. حتى يبلغ الماء. ثم يعود إليه فيسمعه كما قالها. فإن صاح وغلب. سمع دويًا واضطراباً بذلك الصباح كالرعود. لبعده الماء وعمقه». وهناك وصف طويل لكيفية رفع المياه من البئر وذلك بطريقة هندسية تعبر عن تطور هذه التقنية الميكانيكية في تلك المرحلة. أنظر وصف شيخ الربوة لصفد وبئر الساتورة في كتاب الأب اس. مرمجي الدومنيكي. «بلدانية فلسطين العربية». وقف عليها وفهرستها محمد خليل الباشا. بيروت: عالم الكتب. ١٩٨٧. ص ١٨٥ - ١٨٨. الباشورة: سد من حجارة وتراب. يمنع وصول الخيالة وغيرهم إلى مواضع المحاربيين.

١٦ ابن عبد الظاهر. الروض الزاهر. ص ٤٢٣.

١٧ الدباغ. مصدر سبق ذكره. بلادنا فلسطين. ج ٤ - ق ٢ (في الديار الباقية). كفرقرع: دار الهدى. ١٩٨٨. ص ٤٨٦ - ٤٨٧: أسبير منير. اللد في عهدي الانتداب والاحتلال (سلسلة المدن الفلسطينية ٢). بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية. ٢٠٠٣. ص ٨ - ٩: عبد الرزاق أبو ليل. قصة مدينة اللد (سلسلة المدن الفلسطينية). المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. دائرة الثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية. ص ١٤. اللد: تقوم فوق رقعة منبسطة من أرض السهل الساحلي الفلسطيني وترتفع نحو ٥٠ متراً عن سطح البحر. تقع على مسافة ١٦ كم جنوب شرق يافا. وأقل من ٥ كم شمال شرق الرملة. تتميز بموقع جغرافي مهم. فهي ظهير شرقي ليافا وبوابة غربية للقدس. وتوأم للرملة. لذلك فهي تشكل عقدة مواصلات مهمة. الوادي الكبير: من أهم الأودية في منطقة اللد. يفيض بالمياه عقب هطول الأمطار شتاءً. يبدأ من شمال اللطرون في جبال القدس. ثم يتجه إلى الشمال الغربي ماراً بشمال اللد. ليلتقي بنهر العوجاء (اليركون). أنظر: معجم بلدان فلسطين. ص ١٣٧-١٣٨. www.kunooz.com

١٨ محمد محمد حسن شراب. اللد والرملة توأمان لفلسطين خالدان. عمان: الأهلية للنشر والتوزيع. ٢٠٠٦. ص ١٥٠: عبد الرزاق أبو ليل. مصدر سبق ذكره. ص ١٤: أسبير منير. مصدر سبق ذكره. ص ٨ - ٩.

التراب من الخنادق، وكان الأمير سيف الدين الزيني مسؤولاً عن عمارة القلعة وأبراجها، ويمكن الاستنتاج من تتبع الأحداث التي يوردها ابن عبد الظاهر لسنتي ٦٦٥هـ-٦٦٦هـ، أن مشروع إعمار صفد بدأ وأنجز بحضور السلطان وبمشاركته الفاعلة في العمل والتنظيم والإشراف، فقد جاء من مصر إلى الشام من أجل إعمار صفد، ووصل في ٢٤ رجب سنة ٦٦٥هـ / ١٩ نيسان ١٢٦٧م، وهو تاريخ بداية العمل ووضع حجر الأساس للمشروع العمراني الكبير. ويستدل على بقاء بيبرس في صفد طوال مرحلة الإعمار من أن وفوداً قبلية حجازية تريد لقاء السلطان، جاءت إلى صفد في شهر صفر سنة ٦٦٦هـ / تشرين الأول ١٢٦٧م، وكانت أعمال الإعمار قائمة ومستمرة بمشاركته وبإشرافه، منذ لا يقل عن سبعة أشهر، فبحسب ما ذكر ابن عبد الظاهر فإن هذه الوفود جاءت إلى صفد، "وهو مباشر عمارة قلعة صفد بنفسه، إما راكباً وإما راجلاً، وإما عاملاً بيده، وإما بنقل الحجارة وأمر بعمل المجائر ونقل السلطان الأحطاب على فرسه ولما تجهزت المجائر شرع في العمارة وقسمت على الأمراء والبحرية وبأشر عمارة الأبراج الأمير سيف الدين الزيني، وعملت أبواب سر إلى الخندق"، بقي بيبرس في صفد مدة لا تقل عن سنة، وذلك حتى إنجاز الإعمار والانتهاه من الأعمال كلها، بما في ذلك كتابة النقوش التذكارية ووضعها،^{٢٢} فقد حرص بيبرس على كتابة بعض العبارات على الأسوار تخلد هذا العمل وتتضمن سجل جهاده ضد الفرنجة، وألقاباً كان جدير بحملها.^{٢٣} ومن أهم العمائر التي بناها الظاهر في صفد ولا تزال ماثلة حتى اليوم، الجامع الذي يحمل اسمه

ويعرف بالجامع الأحمر، ولعله الجامع الذي ذكره ابن شاعر الكتبي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) حين قال: «وبنى بربضها جامعاً حسناً»^{٢٤} وقد زار الرحالة أوليا جلبي هذا الجامع في القرن الحادي عشر للهجرة والموافق للقرن السابع عشر للميلادي، وقد أثار إعجابه ودهشته ووصف قبته ومئذنته التي تشبه الأبراج في ضخامتها وعلوها. اكتسب هذا الجامع اسمه من حجراته الحمراء.^{٢٥} بنى الظاهر جامعاً آخر في صفد لعله جامع القلعة، فقد ذكر محيي الدين بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م) أن الظاهر بنى في صفد جامعين، واحد في الربض والآخر في القلعة، وبعد الانتهاء من عمارتها استدعى جماعة من أهالي دمشق للإقامة فيها.^{٢٦} فأصبحت عمارة بالسكان مشحونة بالرجال، يقول مصطفى مراد الدباغ: وهكذا فإن صفد يعود فضل تجديد بنائها وعمرائها وتوسيعها وتحسينها إلى السلطان الظاهر بيبرس، مما يصح أن تنسب إليه وتُسمى به (الظاهرية).^{٢٧}

٧- تعميم مدينة الرملة: قام الظاهر بيبرس بتعمير مدينة الرملة وتجديد سورها وجعلها مركزاً إدارياً، وعيّن فيها والياً، وهو ما عبّر عنه المقريزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) بقوله: «عمرها وصيرها عملاً وولى فيها»،^{٢٨} ثم قام بإصلاح مصالحها وتوفير حاجاتها،^{٢٩} وقام الظاهر بترميم وتجديد جامعها (الجامع الأبيض) فعمّر القبة والبواب المقابل للمحراب وعمر المنارة القديمة، التي زالت فيما بعد، وقام الملك الناصر محمد بن قلاوون ببناء منارة جديدة مكانها، وهي التي ما زالت قائمة حتى يومنا

٢٤ الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٤٤٤؛ الرض هو: المكان الذي يقع في العادة في قلب المدينة ومركزها، وهو المكان الذي يعجّ بالحركة والنشاط. وبحسب المعجم الوسيط. فهو: وسط الشيء وأساس البناء، وهو الذي يأوي الناس. بمعنى أنه التجمع السكاني والتجاري.

٢٥ طه ثلجي الطراونة، مملكة صفد في عهد المماليك، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٢، ص ٢٥٩؛ الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثاني، دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤، مادة الجوامع والمساجد، ص ٩٤.

٢٦ سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، ص ٦٧ - ٦٨.

٢٧ مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، في ديار الخليل والأردن، ج ١٠، بيروت: دار الطليعة، ط ٤، ١٩٨٨، ص ٨٤؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢١٣.

٢٨ المقريزي، السلوك، ج ١، ق ٢، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (ط ٢ منقحة)، ١٩٥٧، ص ١٦٤؛ صادق أحمد جودة، مدينة الرملة منذ نشأتها حتى عام ١٠٩٩، بيروت / عمان: مؤسسة الرسالة / دار عمار، ط ١، ١٩٨٦، ص ٢١١.

٢٩ الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٤٤٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٩٥.

٢٢ المقريزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥١٣؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٨٠-٢٨٧، إذا كان بيبرس قد أقام في صفد طوال مدة إعمارها، لكن ذلك لا يعني أنه لم يرحلها، فإن طبيعة الموقف العسكري والسياسي والإداري كانت تحتم عليه الخروج لإنجاز بعض المهمات العسكرية على الجبهة الفرنسية، أو الذهاب إلى القاهرة نفسها، من ذلك أنه اضطر لمغادرة صفد في رجب ٦٦٦هـ. عندما وصلته الأخبار بأن الفرنجة في يافا يحملون الميرة إلى عكا. وأنهم أقاموا في يافا حانة وضعا فيها بعض الفتيات المسلمات، فيما اعتبره السلطان نقضاً للهدنة بين الطرفين، ففتح يافا، وهدم قلعتها، ولمّا فرغ من ذلك، وبحسب ابن عبد الظاهر: «رحل عنها في ١٢ رجب متوجهاً إلى صفد لمشاهدة عمارتها المتجددة، فنشاهدها، وأمر بنقل ريشها، ثم رحل عنها إلى الشقيف». وقد ذكرنا أن عمارة افتتحها السلطان بيبرس في ٢٤ رجب ٦٦٥هـ، فذلك إذن عام كامل، وهو مدة نزوله صفد للإشراف على عمارتها. أنظر: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٨٠، ٢٩٢ - ٢٩٥.

٢٣ سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، ص ١٧؛ أنظر النص الذي أمر الظاهر بنقشه على أسوار قلعة صفد في: الروض الزاهر، ٢٨٥-٢٨٧.

هذا، وقد وصفها مجير الدين بأنها من عجائب الدنيا في الهيئة والعلو.^{٣٠}

الحرم الإبراهيمي في الخليل، ورّم مكاناً قد تهدم من قبة الصخرة، وبنى جامعاً في مدينة اللد، هو الجامع الكبير، بني بحجارة وأعمدة من أنقاض كنيسة سان جورج الصليبية، وهناك نقش تذكاري مثبت فوق المدخل الرئيس يظهر فيه اسم الظاهر بيبرس وتاريخ البناء (٦٦٦هـ/١٢٦٨م)، وعندما تحدث ابن عبد الظاهر عن فتوح يافا، قال عن الظاهر بيبرس عن هذا الموضوع: «وأمر ببناء الجوامع والمساجد بهذه البلاد إيقصد المنطقة الساحلية، وإظهار شعائر الإسلام، وإزالة المنكرات منها».^{٣٤}

٨- إعادة بناء قاقون:^{٣١} عمّر بيبرس قاقون وجدد قلعتها التي دمرت في الحروب الصليبية. فبعد أن فتح السلطان بيبرس قيسارية وأرسوف وهدمهما، رأى أنه بحاجة إلى حصن عسكري في هذه المنطقة ولكن ليس على الساحل مباشرة حيث يخشى من عودة الفرنجة إليه، وإنما أراد أن يكون في موقع صوب الداخل وفي الوقت نفسه على مقربة من الساحل حتى يراقب تحركات الفرنجة، ويكون مستودعاً للذخيرة والمؤن، ومحطة للبريد.^{٣٢} من أجل ذلك أمر السلطان ببناء قلعة قاقون سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م عوضاً عن قيسارية وأرسوف، وزوّدها بالمرافق والمنشآت اللازمة، فبنى بها جامعاً وشيّد حوض ماء للسبيل، وبعد أن اكتملت عملية الإعمار، نقل إليها جماعات من الناس من مناطق متعددة، وذكر ابن عبد الظاهر أن الناس كانوا بحاجة إلى مكان يحفظهم ويوفر لهم الحماية، فقرر بيبرس عمارة قاقون، فعمّرت وأصبحت قلعة حصينة وعمرت الكنيسة جامعاً، وجاءها الناس من سائر الجهات.^{٣٣}

١٠- عمارة مشهد النصر (عين جالوت): ومن طريف عمائر الظاهر بيبرس حرصه على بناء المشاهد أو النصب التذكارية، فقد بنى مشهداً في عين جالوت عرف بمشهد النصر، وذلك لتخليد ذكرى الانتصار العظيم على المغول، فتحت عنوان: «ذكر عمارة مشهد النصر بعين جالوت»، كتب محيي الدين بن عبد الظاهر يقول: «لما جرى ما يسهّر الله من النصر على التتار بعين جالوت، وكان ذلك الموضع شريفاً... ورأى السلطان شرف هذه البقعة، وأن الله أدّخّر هذا الفتح العزيز لها، رغب في ابتناء مشهد هناك، يعلم به قدر منحة الله، وما سفك بذلك المكان من دماء الأعداء، وكتب بذلك إلى النواب بالشام».^{٣٥} وفي هذا السياق يقول الدكتور زكي محمد حسن إن المسلمين لم يهتموا بتشييد نصب تذكارية لتخليد ذكرى انتصاراتهم الحربية كما فعل الرومان وغيرهم، فلم يخلّفوا أي عمائر من هذا الطراز مع سعة فتوحاتهم، وعظمة انتصاراتهم، ثم يستدرك ويقول: «إننا لا نعرف إلا مثلاً واحداً للنصب التذكارية في الإسلام وذلك هو البناء المسمى مشهد النصر، وقد شيّده السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في الساحة التي انتصر فيها المماليك على المغول في عين جالوت».^{٣٦} ولعل الرأي الذي قرره الدكتور زكي محمد حسن بحاجة إلى البحث والدراسة وخصوصاً في ضوء ما

٩- بناء المساجد: بنى الظاهر بيبرس مساجد عديدة، وأصلح وجدّد فيها وخصوصاً في المنطقة الساحلية، إذ قام الفرنج بتخريب المساجد في المدن التي استولوا عليها. فكما ذكر سابقاً: بنى الظاهر جامعين في صفد وفي قاقون، وجدّد الجامع الأبيض في الرملة، بالإضافة إلى المسجد الذي بناه على مقام سيدنا موسى، وجدّد

٣٠ الحنبلي الأُنس الجليل، ج ٢، ص ٦٨ - ٦٩: نجاح أبو سارة. عمارة المآذن الإسلامية والمآذن الفلسطينية. الخليل: جامعة الخليل - منشورات مركز البحث العلمي، ١٩٨٨، ص ٣٩ - ٤٠؛ صادق جودة. مدينة الرملة، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

٣١ قاقون: تقع على بعد ٧ كم إلى الشمال الغربي من طولكرم وهي موقع تاريخي مهم. عانت في الحروب الصليبية. إذ حلّ بها الدمار، وفي عهد المماليك أعيد بناؤها على يد الظاهر بيبرس. وأصبحت مركزاً للبريد على طريق غزة - دمشق. تحيط بها أراضي طولكرم وشويكة ودير الغصون والمنشية. كان يمر بجوارها خط سكة الحديد الذي يربط طولكرم بحيفا. قُدّر عدد سكانها سنة ١٩٤٥ بنحو ١٩٧٠ نسمة. دمرها الصهاينة سنة ١٩٤٨، وأقاموا فوق أراضيها عدة مستعمرات منها مستعمرة «روفين». أنظر: الموسوعة الفلسطينية - القسم العام، المجلد الثالث، دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤. (مادة قاقون). ومعجم بلدان فلسطين، ص ٥٩٠-٥٩١.

٣٤ ابن كثير البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٣٠٧: الكتيبي. فوات الوفيات، ج ١، ص ٢٤٤: عبد الرزاق أبو ليل. قصة مدينة اللد. (سلسلة المهن الفلسطينية ١٣). المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة / دائرة الثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية، ص ١٥: أسبير منير. اللد في عهد الانتداب والاحتلال، ص ٨ - ٩: محمد شراب. اللد والرملة، ص ١٤٩ - ١٥٠: ابن عبد الظاهر. الروض الزاهر، ص ٢٩٣.

٣٥ المفريزي. السلوك، ج ١ - ق ٢، ص ٤٤٦: ابن عبد الظاهر. الروض الزاهر، ص ٩١.

٣٦ زكي محمد حسن. فنون الإسلام، بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٨١، ص ٤٤.

٣٢ الطراونة. مملكة صفد، ص ٤٨، ص ١٢٥.

٣٣ ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٩٥: الكتيبي. فوات الوفيات، ج ١، ص ٢٤٣ - ٢٤٤: ابن عبد الظاهر. الروض الزاهر، ص ٢٧٥.

نكرنا أعلاه فيما يتعلق بإعمار صنف والنقوش الكتابية، التي حرص الظاهر بيبرس على كتابتها على الأسوار لتخلد إنجازاته العمرانية وانتصاراته الحربية. كذلك يجب التنويه إلى ذلك النمو الهائل في إنشاء المباني المتنوعة في مدينة القدس عموماً، والمسجد الأقصى (الحرم القدسي) خصوصاً، وتحديدًا في العصر المملوكي، وذلك بمساهمة ومبادرة من السلاطين والأمراء، والقادة والتجار والأغنياء، والمحسنين من الرجال والنساء، الذين حرصوا جميعاً على إقامة مثل هذه المباني التذكارية، وترميمها وصيانتها، وذلك ضماناً لتخليد أسمائهم.^{٣٧} وذكر الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أن صلاح الدين أقام مشهداً مماثلاً في حطين عرف باسم قبة النصر.^{٣٨}

صحن الصخرة الشريفة، وذكر مجير الدين الحنبلي في الأُنس الجليل أنه «عمر المغلق ببلد سيدنا الخليل... على باب المسجد الشريف الذي بداخله الأقران والطواحين وهو مكان من العجائب...»، والمقصود بالمغلق التكية وملحقاتها التي يُعد فيها سماط الخليل والمائدة الخيرية، وهو ما عبّر عنه ابن كثير، بأن الظاهر قد زاد في زاوية سيدنا الخليل، وهذا يشمل توسعة المكان وزيادة المخصصات والتنفقات.^{٤١}

خان الظاهر بالقدس اهتمام المماليك بالقدس

يعتبر عصر المماليك في فلسطين من أزهى عصورها التاريخية، سواء كان من حيث الأمن والاستقرار، أو الرقي والتقدم العمراني والحضاري، فليس غريباً أن يعتبر العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية في فلسطين، فقد شيّد المماليك فيه المساجد والمدارس والمستشفيات والجسور والقلاع والأربطة والسبل والخانات والقنوات وغيرها.^{٤٢} واهتموا كذلك بإحياء الشعائر الإسلامية ورعاية المقدسات، وإقامة المنشآت الدينية في الأماكن المقدسة، ما أعطى انطباعاً بأن لدولتهم دور في رفع راية الإسلام، تماماً كما كان لهم شرف القيام بالدور نفسه نتيجة جهادهم ضد الفرنجة والمغول. في ضوء ذلك كان من الطبيعي أن تمتد رعايتهم واهتمامهم إلى مدينة القدس، حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة سواء بالإضافة أو الإصلاح أو الترميم، ناهيك عن اهتمامهم بإقامة المنشآت التعليمية والخيرية كالزوايا والتكايا والمدارس والخانات، بهدف توفير أسباب الحياة الطيبة والكرامة لأهلها وزائريها، ولتنشيط الحياة فيها.^{٤٣} بالرجوع إلى الكتيب

١١ - بناء العديد من العمائر المتعددة في عهده إلا إنها نسبت إلى موظفيه وعماله، نذكر منها على سبيل المثال رباط علاء الدين البصير في القدس، الكائن بباب الناظر، وهو من إنشاء الأمير علاء الدين أيدغدي بن عبد الله الصالحي، ناظر الحرمين الشريفين في أيام الظاهر بيبرس إلى أيام المنصور قلاوون وذلك سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٧ م.^{٣٩} وفي العصر العثماني استعمل هذا الرباط سجنًا ثم تحول إلى دار للسكن، وقد أضيف إليه عدد من الغرف، وكان يقطن فيه عدد من السودانيين الذين وفدوا إلى المنطقة.^{٤٠}

والرباط هو في الأصل بيت المجاهدين وكان الهدف من إقامته بداية عسكرية، وكانت تنتشر بوجه خاص في المدن الساحلية كأبراج للمراقبة، لكن لم تكن جميعها كذلك، فربط القدس والخليل لم تكن تخدم بالأساس أهدافاً عسكرية، وخصوصاً بعد أن تم تحرير البلاد من الفرنجة، بل كان الهدف الأساسي من بنائها توفير أماكن مناسبة لإقامة الزائرين الذين يفتدون إلى مدينة القدس، بالإضافة إلى دورها في مجال التعليم والتربية الروحية. وأصبح العديد منها في العصر العثماني ملجأ للفقراء والمساكين، حيث وفرت لهم الطعام وقدمت لهم مختلف المساعدات. كما قام الأمير علاء الدين بتبليط

٤١ المصدر السابق. ص ٣٧٦: الحنبلي. الأُنس الجليل. ج ٢، ص ٢٧٠: عبد الغني النابلسي. الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية. تحقيق ودراسة أكرم حسن العليبي. بيروت: المصادر. ط ١. ١٩٩٠. ص ٢٥٢ - ٢٥٣: عبد الغني النابلسي. الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية. القسم الثاني. إعداد الدكتور حمد أحمد عبد الله يوسف. نشرة رقم ١٠. القدس: قسم إحياء التراث الإسلامي. ١٩٩٤. ص ٦٠١ - ٦٠٤: وللمزيد عن سماط الخليل أنظر: خليل عثمانة. فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي. ص ٤٢٧ - ٤٣٠: ابن كثير البداية والنهاية. ج ١٣، ص ٣٠٧.

٤٢ الديباج. بلادنا فلسطين. ج ٩، ص ١١: زكي محمد حسن. فنون الإسلام. ص ٧١.

٤٣ سعيد عبد الفتاح عاشور. بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك في: المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين) - المجلد الأول (القدس)،

٣٧ دونالد ب. لتل. القدس تحت حكم الأيوبيين والمماليك ١١٨٧ - ١٥١٦، في كتاب: القدس في التاريخ، تحرير وترجمة كامل العسلي. عمان: الجامعة الأردنية - عمادة البحث العلمي. ١٩٩٢. ص ٢١٦ - ٢١٨.

٣٨ سعيد عاشور الظاهر بيبرس. ص ٣٣.

٣٩ مجير الدين الحنبلي. الأُنس الجليل. ج ٢، ص ٢٧٠: عارف العارف. المفضل. ص ١٩٩: رائف نجم وزملاؤه. كنوز القدس. عمان: مؤسسة آل البيت. ١٩٨٣. ص ١٤٣ - ١٤٤.

٤٠ الموسوعة الفلسطينية - القسم العام. المجلد الثاني. (مادة الخوانق والربط والزوايا). ص ٣٧٧.

الذي أعدته المدرسة البريطانية للآثار في القدس والذي يحتوي على فهرس للآثار الإسلامية في المدينة، نجد أن هناك ٨١ أثراً معمارياً باقياً تعود إلى العصر المملوكي، من أصل ١٥٣ أثراً تضمنها الفهرس، منها ٥٦ أثراً تعود إلى دولة المماليك البحرية و٢٥ تعود إلى دولة المماليك البرجية.^{٤٤}

ناهيك أيضاً عن عشرات العماائر والأبنية المملوكية التي اختفت، منها بل ومن أشهرها خان الظاهر، الذي يعتبر من أهم المؤسسات الاجتماعية الخيرية في العصر المملوكي، الذي سنفضل الحديث عنه بعد قليل.

نظام الوقف ودوره في دعم العماائر المملوكية وتوفير أسباب الحياة

لقد ارتبطت المؤسسات والعماائر المملوكية بنظام الوقف الذي أمدّها بالموارد المالية لتتمكن من أداء رسالتها والقيام بمسؤولياتها الاجتماعية، بحيث يمكننا القول إن نظام الوقف في الإسلام كان حجر الأساس الذي قامت عليه جميع المؤسسات الخيرية والاجتماعية عبر تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.^{٤٥}

حظيت الأوقاف باهتمام المماليك فوقفوا على المنشآت التي أقاموها الأوقاف العديدة وذات الإيرادات الوفيرة، حتى يضمنوا لهذه المنشآت والمؤسسات البقاء والاستمرار في أداء أعمالها وتحقيق أهدافها،^{٤٦} وقد نشأ نظام الوقف في الإسلام في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ثم تبعه أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم، حتى لم يبق صحابي إلا أوقف شيئاً من ممتلكاته، ثم استمر المسلمون بعد ذلك جيلاً بعد جيل يوقفون الأراضي والبساتين والدور وغيرها لأعمال البر والخير، فكثرت المؤسسات الخيرية والاجتماعية، التي بلغت من الكثرة درجة يصعب إحصاؤها والإحاطة بها، فكان لها دورها في تحقيق التعاون والتكافل الاجتماعي. وبهذا، تخلد

عَمَان / إربد: الجامعة الأردنية / جامعة اليرموك. مطابع الجمعية العلمية الملكية. ١٩٨٣، ص ٩٠ - ١٠٢.

٤٤ إسحاق موسى الحسيني (ترجمة وتقديم). الأبنية الأثرية في القدس الإسلامية. القدس: دائرة الأوقاف الإسلامية / مطبعة دار الأبنام. ١٩٧٧، ص ١٦ - ٢٠؛ دونالد ب. تل. مصدر سابق. ص ٢١٥ - ٢١٩.

٤٥ مصطفى السباعي. من روائع حضارتنا. ص ١١٥ - ١٢٢.

٤٦ يوسف درويش غوانمة. تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي. عمّان: دار الحياة / بدعم من جامعة اليرموك. ١٩٨٢، ص ١١٠؛ سعيد عاشور. بعض أضواء جديدة. ص ٩٣، ص ١٠٢.

حضارات الأمم، وتتم المفاضلة فيما بينها،^{٤٧} وقد لفتت الأوقاف بسعة حجمها، وتنوع مواردها، ودورها في ازدهار المنشآت والمؤسسات المتعددة في بلاد الشام، نظر الرحالة ابن جبير (٥٤٠هـ - ٦١٤هـ/١١٣٥م - ١٢١٧م)، وفي ذلك يقول: «ولكل مشهد...أوقاف معينة من بساتين وأرض...ورباع، حتى إن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه. وكل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقة (خانقاه) يعين لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها، وهذه أيضاً من المفخر المخلدة. ومن النساء الخواتين نوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة وتنفق فيها الأموال الواسعة....».

وقد سجل لنا ابن بطوطة (٧٠٣هـ - ٧٥٦هـ / ١٣٠٤م - ١٣٥٥م) في رحلته اتساع الأوقاف ذات النفع العام في العصر المملوكي، فذكر أن الأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها، منها أوقاف على العاجزين على الحج ومنها أوقاف لتجهيز البنات لأزواجهن، وأوقاف لتحرير الأسرى، وأوقاف لأبناء الأسير، وأوقاف لإصلاح الطرق ورفقها وغيرها.^{٤٨}

كانت الأوقاف في القدس في هذا العصر المصدر الأساسي للإنفاق على الحياة الدينية والتعليمية وعلى المؤسسات الخيرية المتعددة، بحيث أضحت الأوقاف من دعائم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية فيها وعامل من عوامل توفير الحياة الكريمة لأهلها، وتنشيط الحياة فيها وتحقيق التقدم والازدهار.^{٤٩} وفي ما يلي أمثلة على أوقاف الظاهر بيبرس في فلسطين، واهتمامه بالقدس:-

١- في سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م قام الظاهر بيبرس بزيارة القدس فوقف على أحوالها وحاجاتها، وخصوصاً ما يحتاج إليه المسجد الأقصى وقبة الصخرة من العمارة والإصلاح والترميم، وأرسل لهذا الغرض المهندسين

٤٧ غوانمة. مصدر سبق ذكره. ص ١٠٩؛ مصطفى السباعي. مصدر سبق ذكره. ص ١١٥.

٤٨ ابن بطوطة. تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار بيروت: دار الكتاب اللبناني (مكتبة المدرسة). د.ت. ص ٧٣ - ٧٤ و ص ٣٦؛ ابن بطوطة. تحفة الأنظار في غرائب الأمصار. شرحه وكتب هوامشه طلال حرب. بيروت: دار الكتب العلمية. ط ٢٠٠٢، ص ٦١ و ص ١٢٢ - ١٢٣؛ سعيد عاشور. بعض أضواء جديدة. ص ١٠٢؛ ابن جبير. رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف ب رحلة ابن جبير. بيروت: دار ومكتبة الهلال. ١٩٨١، ص ٢٢٣.

٤٩ كامل العسلي. مكانة القدس عربياً وإسلامياً. في: الموسوعة الفلسطينية - الدراسات الخاصة. المجلد السادس. بيروت، ص ٨١٩ - ٨٢٠.

والحرفيين بالإضافة إلى المعدات والمواد اللازمة لتنفيذ هذا المشروع،^{٥٠} ثم نظر في الأوقاف فقام بتنظيم وترتيب أوضاعها وتوفير أسباب الحماية والاستقرار لها، وخصص خمسة آلاف درهم تنفق على مصالح المسجد الأقصى في كل سنة، وأصدر في تلك الزيارة الأوامر ببناء خان خارج أسوار القدس.^{٥١}

٢- في شعبان من سنة ٦٦٤هـ قام الظاهر بيبرس بزيارة ثانية لمدينة القدس، بعد زيارته لمدينة الخليل، فزار معالمها، وتصدق على فقرائها، ثم - بحسب ابن عبد الظاهر جاء إلى الحرم الشريف مستخفياً في نفرين أو ثلاثة، وصلى الجمعة بالقدس، ثم رحل إلى عين جالوت، وفي سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م قام بزيارة أخرى للقدس، وذلك في طريق عودته من الحج، وفي هذه الزيارة تم الشروع في بناء قبة ومسجد على القبر المنسوب إلى سيدنا موسى عليه السلام والذي يقع على الطريق بين القدس وأريحا عند الكتيب الأحمر.^{٥٢}

٣- في سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م قام الظاهر بيبرس بوقف عدة قرى في الشام والقدس، بحيث يصرف ريعها في توفير خدمات وأعمال إحسان وبر للزائرين، الذين يقدون إلى مدينة القدس من مختلف أنحاء العالم الإسلامي وخصوصاً للمحتاجين منهم، فيخصص الريع لتوفير الخبز والطعام وإصلاح النعال وتقديم مبلغ من المال.^{٥٣}

٤- ذكرنا سابقاً قيام الظاهر بيبرس ببناء عدة جسور منها جسر دامية على نهر الأردن، فأوقف على هذا الجسر وفقاً خصص للإنفاق عليه، من أجل القيام بأعمال

٥٠ المقريزي، السلوك، ج ١ - ق ٢، ص ٤٩١: العارف، المفصل، ص ١٩٨.

٥١ المقريزي، السلوك، ج ١ - ق ٢، ص ٤٤٥.

٥٢ الحنبلي، الأئس الجليل، ج ١، ص ١٠٢، ج ٢، ص ٨٧: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥٠-٢٥١: تحدث كامل العسلي عن أربع زيارات قام بها الظاهر بيبرس للقدس ٦٦١هـ، ٦٦٢هـ، ٦٦٤هـ، ٦٦٨هـ / ١٢٦٣م، ١٢٦٤م، ١٢٦٦م، ١٢٦٩م، ولكنه جانب الحقيقة عندما قال إن الظاهر بيبرس أمر ببناء خان بظاهر القدس وبناء قبة على مقام النبي موسى أثناء زيارته الأخيرة، أنظر: كامل العسلي مكانة القدس عربياً وإسلامياً، في الموسوعة الفلسطينية - القسم الثاني (الدراسات الخاصة)، ص ٨١٩: أما مجير الدين الحنبلي فيتحدث عن زيارتين للظاهر بيبرس للقدس الأولى سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م، والزيارة الثانية سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م، أنظر: الأئس الجليل، ج ٢، ص ٨٧: العارف، المفصل، ص ١٩٨ - ١٩٩.

٥٣ المقريزي، السلوك، ج ١ - ق ٢، ص ٥٢١.

الصيانة والترميم التي يحتاجها.^{٥٤}

٥- مما لاشك فيه أن أعمال الظاهر بيبرس كانت عالية القدر شاملة لشتى أنواع البر والخير، من هنا فقد قام بتخصيص وقف يرصد على مقام أبي عبيدة عامر بن الجراح، بحيث ينفق ريعه على مصالح وحاجات الزائرين لهذا المقام،^{٥٥} وللهدف نفسه قام كذلك بتخصيص وقف على مقام جعفر الطيار.^{٥٦}

٦- اهتم الظاهر بيبرس بمدينة الخليل وخصوصاً بالمسجد والسماط، ويبدو أن إعادة ترتيب أوضاع السماط تمت بتوجيهات مباشرة وبتكليف رسمي منه، فيذكر محيي الدين بن عبد الظاهر ضمن عرضه لأحداث سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣م وصول كتب إلى جبل القلعة بالقاهرة من نائب الكرك الأمير عز الدين، تتناول إنجازها في ترتيب السماط بالخليل والضيافة للوافدين، وترتب الرواتب الخاصة، وذلك بعد أعوام طويلة من التوقف والانقطاع لهذا العمل الخيري الذي يعود بالنفع على المقيمين والوافدين. قدم مجير الدين الحنبلي وصفاً رائعاً للسماط في أكثر من موضع في الأئس الجليل ومن ذلك قوله: «وهذه الأسماط من عجائب الدنيا يأكل منه أهل البلد والواردون، وهو خبز يعمل في كل يوم ويفرق في ثلاثة أوقات..... ومقدار ما يعمل فيه من الخبز كل يوم أربعة عشر ألف رغيف، ويبلغ خمسة عشر ألف رغيف في بعض الأوقات إذا كان عندهم زائر، وأما سعة وقفه فلا تكاد تنضب. وأما سماطه الكريم، فإنه لا يمنع أحد لا من الأغنياء ولا من الفقراء.....، وأما الاهتمام بعمل السماط من كثرة الرجال في تعاطي أسبابه من طحن القمح وعجنه وخبزه وتجهيز آلاته من الحطب وغيره والاعتناء بأمره فذلك من العجائب، لا يكاد يوجد مثل ذلك عند ملوك الأرض».^{٥٧} كما أصلح وصبّ أوضاع الأوقاف الخاصة بالخليل عليه السلام، فأرجع تلك الأوقاف التي استولى عليها بعض الأمراء والقادة، وزيادة على ذلك أوقف عليه وقفاً جديداً يتمثل في أراضي قرية إذنا، كما زاد في الرواتب والنفقات المخصصة له وخصوصاً رواتب وقوام ومؤذني الحرم الإبراهيمي، ومما يظهر اهتمام الظاهر

٥٤ الكتبي، قوات الوفيات، ج ١، ص ٢٤٣.

٥٥ المصدر السابق، ص ٢٤٣: الحنبلي، الأئس الجليل، ج ٢، ص ٨٨.

٥٦ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٩٤.

٥٧ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٢١: الحنبلي، الأئس الجليل، ج ١، ص ٦٣، ج ٢، ص ٢٧٠: عبد الغني النابلسي، الحضرة الأئسية في الرحلة القدسية، ص ٢٥٢ - ٢٥٣: المقريزي، السلوك، ج ١ - ق ٢، ص ٥٠٥.

بالخليل تحديداً، هو تلك الزيارة المتأنية التي قام بها لهذه المدينة سنة ٦٦٤هـ، والتي وثقها ابن عبد الظاهر في **الروض الزاهر**، وفي ذلك يقول: «... فزار الشيخ علي البكاء، ثم دخل إلى مقام إبراهيم، وزار وكشف المظالم، وقرئت القصص بين يديه، ووقع عليها، ومد سماط الخليل- عليه السلام وأكل منه، وأكل الناس والفقراء، وفرق جملة من المال على الأئمة والقراء والمؤذنين والقوام وغيرهم»^{٥٨}.

٧- خصص الأوقاف اللازمة للمساجد التي بناها وذكرناها سابقاً، وذلك بهدف تلبية حاجاتها من نفقات وأعمال صيانة وترميم، فرتب وفقاً على جامع قاقون لهذا الغرض.^{٥٩}

مفهوم الخان

٨- أوقف الظاهر بيبرس عدة قرى على بعض مزارات الأنبياء والأولياء والصحابة، فقد أوقف على مقام علي المجنون ثلاثة أرباع أراضي قرية الحقباب (جنوب صفد) وفي رواية الحباب (إحدى قرى وادي القرى التي يمر بها حجاج الشام)، والربع الأخير خصص لمقام الشيخ إلياس، كما أوقف قرية بمنطقة حمص على قبر خالد بن الوليد، ووفقاً لابن عبد الظاهر هي قرية فرع من قرى صفد الواقعة إلى الشمال الغربي منها، كما أوقف قرية أخرى بمحيط صفد، لعلها حطين، على قبر النبي شعيب عليه السلام.^{٦٠} وفي هذا السياق يقول الطراونة: بعد أن فتح الظاهر صفد أوقف عدة قرى على عدد من مزارات الأولياء والصحابة والأنبياء... كما أوقف قرية حطين إلى الغرب من طبرية على قبر النبي شعيب، وقرية قديتا في بر صفد على مزار الشيخ خضر.^{٦١}

٥٨ الحنبلي الأندلس الجليل، ج ٢، ص ٨٨، الكتبي، فوات الوفيات، المجلد الأول، ص ٢٤٣؛ ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**، ص ٢٥٠.

٥٩ الكتبي، فوات الوفيات، المجلد الأول، ص ٢٤٣.

٦٠ المقريزي، **السلوك**، ج ١ - ق ٢، ص ٥٤٨، قرية فرع من صفد شمال شرق صفد، على بعد ١٥ كم عنها، في جبال الجليل الأعلى. على السفح الشرقي لجبل كنعان. بلغ عدد سكانها سنة ١٩٤٥، ٧٤٠ نسمة. قام الصهاينة، سنة ١٩٤٨، بتشريد سكانها وتدميرها. وأقاموا على أراضيها مستعمرة «حاتسور». أنظر: **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، المجلد الثالث، دمشق، ١٩٨٤م، ص ٤٤٢ - ٤٤٣. الحقباب: قرية تقع إلى الجنوب من صفد، قرب قرية الظاهرية التحتا. أنظر: الطراونة، **مملكة صفد**، ص ٩٢. قديتا: قرية تقع إلى الشمال الغربي من صفد، على بعد ٥ كم، وترتفع ٧٥٠ متراً، بلغ عدد سكانها سنة ١٩٤٥، ٢٤٠ نسمة، شرد سكانها سنة ١٩٤٨، وتم تدميرها. أنظر: شراب، **معجم بلدان فلسطين**، ص ٦٠٢.

٦١ الطراونة، **مملكة صفد**، ص ١١٢؛ سهيل زكار، **فلسطين في عهد المماليك من أواسط القرن ٧ هـ / ١٣م إلى مطلع ١٠هـ / ١٦م**، في **الموسوعة الفلسطينية** - الدراسات الخاصة.

المجلد الثاني / الدراسات التاريخية، بيروت، ١٩٩٠، ص ٥٧٧. قديتا: قرية تقع في الشمال الغربي من صفد على بعد ٥ كم، ترتفع ٧٥٠ متر عن سطح البحر، بلغ عدد سكانها سنة ١٩٤٥، ٢٤٠ نسمة. دمرها الصهاينة سنة ١٩٤٨، أنظر: شراب، **معجم بلدان فلسطين**، ص ٦٠٢. حطين: تقع غربي طبرية على بعد ٩ كم، ترتفع ١٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر، تتميز بموقع جغرافي مهم لتحكمه بسهل حطين. تتميز بخصوبة أراضيها ووفرة أمطارها ومياهها الجوفية، ومن هنا اشتهرت بزراعة الحبوب والأشجار المثمرة، بلغ عدد سكانها سنة ١٩٤٥، ١١٩٠ نسمة، دمرها الصهاينة سنة ١٩٤٨، وأقيمت على أراضيها مستعمرات كفار زيتيم وكفار حيتيم، بها قبر شعيب، أنظر: **معجم بلدان فلسطين**، ص ٢٩٥، وبحسب ياقوت الحموي: فإنها تقع بين أرسوف وقيسارية، وبها قبر شعيب عليه السلام، وفي موضع آخر يقول: بين طبرية وعكا، وتبعد عن طبرية فرسخين. أنظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠، ج ٢، ص ٣١٥ - ٣١٦.

٦٢ أنظر كتاب الوقف الذي أنشأه الظاهر بيبرس على مقام النبي موسى في: كامل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية**، المجلد الثالث، عمان، الجامعة الأردنية، ١٩٨٩، ص ١١٩ - ١٢١، الحقباب: قرية تقع إلى الجنوب من صفد، قرب قرية الظاهرية التحتا. أنظر: الطراونة، **مملكة صفد**، ص ٩٢.

٦٣ كامل العسلي، **مكانة القدس**، مصدر سبق ذكره، ص ٨١٩؛ مسعود أبو بكر، **ملكية الأراضي في متصرفية القدس ١٨٥٨ - ١٩١٨**، عمان: مؤسسة عبد الحميد شومان، ١٩٩٦ م، ص ٤٣٣؛ ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**، ص ٢٦٣.

٦٤ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٢، مادة خان، ص ٣٩٠؛ عبد الرحيم غالب، **موسوعة العمارة الإسلامية**، بيروت: جروس برس، ١٩٨٨.

٦٥ **المعجم الوسيط**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج ١، ص ٢٦٣؛ المنجد في اللغة والأعلام، بيروت: دار المشرق، ١٩٩١، مادة خان:

له الأوقاف التي يرصد ريعها للأتفاق على الخدمات التي يقدمها للمسافرين والزائرين والمحتاجين وأبناء السبيل من دون مقابل، ومن أبرز الأمثلة على هذه الخانات خان السبيل في غزة الذي أقامه الأمير علم الدين سنجر الجاولي في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون؛ وخان الظاهر في القدس، الذي يعرف كذلك بخان السبيل، ويُعتبر من أقدم المنشآت المملوكية في فلسطين، وهو موضوع بحثنا هذا.^{٧١}

الخانات في التاريخ الإسلامي والعهد المملوكي تحديداً

قد يكون من الصعب تحديد التاريخ الذي أنشئت فيه الخانات في التاريخ الإسلامي، إلا إنه من المؤكد أنها عرفت مبكراً، حتى إنه يقال إن عمر بن عبد العزيز هو أول من اتخذ الخانات للمسافرين.^{٧٢} وجاء في موسوعة العمارة الإسلامية أن أقدم خان أُقيم على طرق القوافل هو قصر الحير الشرقي في بادية الشام،^{٧٣} وورد في كتاب الكامل في التاريخ لابن الكثير ضمن حوادث سنة ٢٤١هـ/٨٥٥ م، ذكر لخان اسمه خان عاصم، وضمن حوادث ٣٣٩هـ/٩٥٠ م ذكر خان آخر اسمه خان لنجان الذي يبعد عن اصبهان تسعة فراسخ، وقد ذكره ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩ م) في معجم البلدان، وذكر خانات أخرى، مثل خان أم حكيم في منطقة حوران، وخان وردان شرقي بغداد. وقد توفي ياقوت نفسه في أحد خانات حلب.^{٧٤} أما الرحالة ابن جبير الذي استغرقت رحلته ثلاثة أعوام من ٥٧٨-٥٨١هـ/١١٨٣-١١٨٥ م، فقد أفاض في ذكر ووصف خانات الشام، ما أعطى

التجار والمسافرون طلباً للراحة والأمن ولقضاء الأعمال التجارية.^{٧٥} والخانات نوعان: الأول يقام على الطرق التجارية خارج المدن؛ والثاني يقام داخل المدن ويعرف بأسماء أخرى، مثل القيسارية أو دار الوكالة.^{٧٦} أما النوع الأول فكان يبني عادة عند نبع ماء أو مجرى نهر، ويبتعد الواحد عن الآخر مسيرة نهار أي ما يقارب ٣٠ كم، وكان يقدم الخدمات للتجار والرحالة والمسافرين ويوفر لهم الراحة ويجنبهم مشقة السفر ومخاطره ليلاً، وكان يضم مستودعات لحفظ البضائع واصطبلات لإيواء الحيوانات، بالإضافة إلى الحوض في وسط الصحن ومشرب البهائم والفرن والحمام. وكان مزوداً بأبراج للمراقبة، ويحيط به سور خارجي مدعم وبوابة مصفحة وكأنه حصن صغير، وتكون غرف النوم عادة في الطبقة العليا.^{٧٨} ومن أشهر خانات فلسطين التي أقيمت خارج المدن: خان المنية عند بحيرة طبرية، والخان الأحمر بين القدس وأريحا، وخان يونس جنوب غزة، وخان جسر بنات يعقوب على نهر الأردن جنوبي بحيرة طبرية.^{٧٩}

أما خانات المدن فكانت تشترك مع خانات الطرق ببعض ما تقدم من خدمات ومرافق، وكانت تقام عند مداخل المدن خارج السور أو داخله أو في قلب الأسواق قريباً من المسجد، لكن لم يكن لها أسوار وأبراج دفاعية، وقد أطلق عليها اسم دار الوكالة إذا كانت للتجارة العامة، أو الدار إذا كانت للتجارة المتخصصة فيقال دار القطن ودار القز، وقد تحمل اسم الفندق أو القيسارية. أما وظيفتها فهي استقبال التجار ومرؤجي البضائع والوسطاء. ومن الجانب التخطيطي، يتكون الخان من صحن مركزي مكشوف يتوسطه حوض ماء وتحيط بالصحن الدكاكين.^{٨٠} وقد تكون خانات المدن وقفاً على إحدى المؤسسات الدينية أو التعليمية أو الاجتماعية بحيث يصرف ريع الخان عليها، ومن الأمثلة عليها: خان السلطان (دار الوكالة) الكائن بالقدس قرب باب السلسلة، الذي تم وقفه على مصالح المسجد الأقصى، وخان العناية الكائن بباب حطة وتم وقفه على المدرسة الصلاحية. وقد يكون الخان نفسه عبارة عن مؤسسة خيرية حُبست

سهيل زكار، فلسطين في عهد المماليك. مصدر سبق ذكره. ٥٩٨.

١٦ المصدر نفسه، ص ٥٩٨.

١٧ المصدر نفسه، ص ٥٩٨.

١٨ عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية، ص ١٥٢ - ١٥٣.

١٩ الموسوعة الفلسطينية - القسم العام، الجزء الأول، مادة بنات يعقوب، ص ٤٢١.

٧٠ عبد الرحيم غالب، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٦ - ١٥٧؛ سهيل زكار، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩٩.

٧١ عفيف البهنسي، العمارة الزخرفية في فلسطين من الفتح العربي الإسلامي في الموسوعة الفلسطينية - القسم الثاني (الدراسات الخاصة)، المجلد الرابع (دراسات الحضارة)، بيروت ١٩٩٠، ص ٨٢٦؛ الحنبلي، الأئس الجليل، ج ٢، ص ٥٢؛ عبد الرحيم غالب، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧؛ سهيل زكار، مصدر سبق ذكره، ٥٩٨ - ٦٠٠.

٧٢ موسوعة المدن الفلسطينية، المشرف العام ورئيس التحرير حسين العودات، دائرة الثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٩٠، ص ٢١٣.

٧٣ عبد الرحمن غالب، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٣.

٧٤ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٣، ج ٥، ص ٢٩٦، ج ٦، ص ٣٣٥؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، الجزء الثاني، ص ٣٨٩ - ٣٩٠؛ وحول ياقوت الحموي، حياته وتجاوله ومؤلفاته أنظر: كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، القسم الأول، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، ١٩٥٧، ص ٣٣٥ - ٣٤٤.

مدينة القدس في الجهة الشمالية الغربية المشرفة على المدينة، وتحديدًا ضمن أراضي قرية لفتا، فيما يعرف بمنطقة الشيخ بدر، وعلى مسافة قرابة ٣ كم من سور القدس، بحيث شكّل هذا الموقع نقطة مهمة على طريق المواصلات بين يافا والقدس، بل بين المنطقة الساحلية من جهة والقدس والأغوار من جهة ثانية وبين شمال فلسطين وجنوبها.^{٨٠} أما الخان اليوم فقد اندثرت معالمه ولا وجود لأي أثر من آثاره، وكانت البعثة الفرنسية للآثار، التي قامت بحفرياتهما في الجزء الشمالي الغربي من المدينة سنة ١٩١٢، قد تمكنت من العثور على أساسات هذا الخان، وتقوم اليوم مكانه وعلى أرضه المحطة المركزية للحافلات التابعة لشركة أيجد الإسرائيلية.^{٨١} ومن الغريب في هذا السياق، أن عارف العارف في

انطباعاً بسعة انتشارها وأهميتها في واقع الحياة، ففي سياق وصفه لمدينة حلب يقول: "إن لها ريفاً كبيراً من الخانات ما لا يحصى عدده"، ويقول "ثم نزلنا مريحين... في خان كبير يعرف بخان التركمان، وثيق الحصانة.

وخانات هذا الطريق كأنها القلاع امتناعاً وحصانة، وأبوابها حديد..."، أما فلسطين، فكانت في أثناء رحلة ابن جبير في قبضة الصليبيين، ولم يعرج فيها إلا على عكا.^{٧٥} أما ابن بطوطة الذي زار مصر والشام في زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون، وتحديدًا في الأعوام ما بين ١٣٢٤ - ١٣٢٧ م، فقد قدم لنا وصفاً حياً للخانات في دولة المماليك وذلك في طريقه من مصر إلى فلسطين.^{٧٦} إن التوسع في إقامة الخانات في هذه المدة كان نتيجة طبيعية لازدهار الاقتصادي والنشاط التجاري الذي بلغ أوجه في العصر المملوكي، فالرواج التجاري عمل على زيادة الضغط المروري على الطرق التجارية وخصوصاً بين مصر والشام، الأمر الذي استدعى زيادة المحطات التي تخدم قوافل التجار والحجاج والمسافرين ممثلة في الخانات.^{٧٧} فبعد هزيمة المغول وتصفية الوجود الإفرنجي، ساد البلاد حالة من الهدوء والاستقرار أدت إلى انتعاش حركة السياحة الدينية والعلمية، فتوجب وجود نوع آخر من الخانات هو خانات السبيل التي حرص السلاطين والأمراء على إقامتها تقرباً إلى الله (خان الظاهر في القدس وخان السبيل في غزة).^{٧٨} بالإضافة إلى ذلك فقد تم في العهد المملوكي إنشاء عدد كبير من الخانات سواء داخل المدن أو خارجها، كان نصيب القدس منها أكثر من عشرين خاناً، منها: الفحم، المصرف، بني سعد، الظاهر، الغادرية، الزيت، الخاصكية، الجبالي، الأقباط، تنكز، العناية، السلطان، القطنين، الشعارة، الجاولي، فخر الدين بن نسيبة.^{٧٩} موقع خان الظاهر: تم بناء خان الظاهر خارج أسوار

٨٠ المقريزي، السلوك، ج ١ - ق ٢، ص ٤٩١؛ الحنبلي، الأئس الجليل، ج ٢، ص ٨٧، و ص ٣٢٢، ٣٥٥، ٣١٨ - ٣١٩، علي سعيد خلف، شيء من تاريخنا، القدس: وكالة أبو عرفة للصحافة، ١٩٧٩، ص ١٨. لفتا: تجاور مدينة القدس، ولا تبعد عنها سوى مسافة قليلة، باتجاه الشمال الغربي، وتتصل أراضي لفتا مع أراضي القدس وتتداخل معها. فقد توسعت القدس في العهد العثماني وفي زمن الانتداب البريطاني على حساب أراضي لفتا. حتى يقال إن أراضي لفتا وصلت إلى أسوار القدس، ثم إن ملكيات أهالي لفتا شملت أراضي واسعة. فيما اعتبر أنها تقع ضمن حدود بلدية القدس، ونعني بذلك أراضي: الشيخ جراح، أرض السمار، الشيخ بدر، جبل المنشرف، حي باب العمود والساهرة، وادي الجوز وغيرها، وهي جميعاً تعتبر أراضي مشتركة بين أهل لفتا وأهالي القدس. نشأت لفتا على رقعة مرتفعة من جبال القدس (حوالي ٧٠٠ متر عن سطح البحر). على السفح الغربي لجبل خلة الطرحة المشرف على وادي الشامي أحد المجاري العليا لوادي الصرار. وبذلك كانت بوابة القدس الشمالية وبوابتها الغربية، شهدت لفتا نموًا عمرانيًا ملحوظًا، فامتدت مبانيها وأواخر الانتداب نحو الشرق لتلتحم بحي روميما. كما امتدت في الجهة الجنوبية الغربية على شكل محور بمحاذاة طريق القدس - يافا. بلغ عدد سكانها سنة ١٩٢٢ ١٤٥١ نسمة. وسنة ١٩٣١، ١٨٩٣ نسمة يقيمون في أكثر من ٤١٠ بيوت. وفي سنة ١٩٤٥، بلغ العدد ٢٥٥٠ نسمة. احتلها الصهاينة سنة ١٩٤٨، وطردها سكانها. وأسكنوا مهاجرين يهود في بيوتها التي سلمت من الهدم، وأقاموا مستعمرة «مي نفتوح» على أراضيها. والأسم مستمد من التسمية الكنعانية للموقع الذي نشأت عليه القرية. أنظر: الموسوعة الفلسطينية-القسام العام، المجلد الرابع، ص ٤٩؛ وليد الخالدي، كي لا ننسى، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، لا تاريخ، ص ٦٥١؛ شراب، معجم بلدان فلسطين، ص ١٢٩؛ زكريا صيام، القدس مدينتي ولفتا قريتي، عمان: المطابع التعاونية، ١٩٩٦، ص ١٤١-١٤٧؛

٧٥ ابن جبير، الرحلة، ص ٢٠٥، وعن الكتاب والمؤلف، أنظر ص ٥؛ وللتوسع حول الرحلة والموضوع، أنظر: رحلة ابن جبير ص ٢٠٠ - ٢٥٥، وكراتشوفسكي، ص ٢٩٨ - ٢٩٩، وحول عكا، تحديدًا وزيارة ابن جبير لها أنظر: الرحلة، ص ٢٤٩ - ٢٥٥.

٧٦ رحلة ابن بطوطة، ص ٣٦، و ص ٤٣؛ كراتشوفسكي، ص ٤٢٢ - ٤٢٣.

٧٧ غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص ٨٩؛ عرفات المبيض، غزة وقطاعها، ص (٢٣١ - ٢٣٢).

٧٨ محمود علي خليل عطا الله، نيابة غزة في العهد المملوكي، بيروت: دار الأفق الجديدة، ١٩٨٦، ص ٢٨٠؛ سهيل زكار، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩٨.

٧٩ الحنبلي، الأئس الجليل، ج ٢، ص ٥٢ - ٥٣، ج ٢، ص ٨٧، و ص ١١٧؛ كامل العسلي، مكانة القدس، مصدر سبق ذكره، ص ٨١٧ - ٨١٨؛ غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص ٨٨؛ سهيل زكار، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩٩.

www.alfeqh.com

كتابه **المفصل في تاريخ القدس**، يخالف مسألة وجود الخان خارج أسوار المدينة، بالرغم من إجماع المؤرخين القدامى على هذه الحقيقة كالمقريزي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م) في **السلوك** وابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م) في **النجوم الزاهرة**، ومجير الدين الحنبلي (٩٢٧هـ / ١٥٢١م) في **الأنس الجليل**، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧١م) في **البداية والنهاية**، والكتبي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) في **فوات الوفيات**، والقلقشندي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) في **صبح الأعشى**؛ وأيد هؤلاء عدداً من الكتاب والباحثين المحدثين مثل كامل العسلي ويوسف غوانمة وعلي سعيد خلف وخليل عثمانة وسعيد عبد الفتاح عاشور وغيرهم، وعلى العكس من ذلك يحاول العارف إثبات وجود الخان داخل السور، معتقداً أن أحد الأبنية القائمة على بعد مئة متر من باب العمود إلى الجنوب، وهو بحسب قوله له أربع قباب وهو وقف يستخدمه جماعة من آل الخالدي والعلمي، ويستشهد برأي متولي الوقف الذين يعتبرونه من آثار الملك الظاهر، ويتابع قوله: «ويظهر أنه كان على عهد الظاهر مخفراً للشرطة... أو مقراً للمحتسب...»^{٨٢}، وهذا ما يثير التساؤل من جديد، وخصوصاً في ظل وضوح الهدف الذي أنشئ من أجله الخان وطبيعة الأعمال التي نهض بها والخدمات التي قدمها، كما أن استعراض بعض الأحداث والنقاط التي تتمحور حول الخان أو تتعلق به من قريب أو بعيد، توضح بصورة لا يرتقي إليها الشك، ما ذهبنا إليه في هذه الدراسة من معلومات وآراء بشأن موقع الخان وطبيعة أنشطته، وفي الأسطر التالية جلاء أكثر لهاتين المسألتين، عن طريق استعراض ومناقشة بعض القضايا والأحداث ذات الصلة.

قصة وتاريخ بناء الخان: قام السلطان الظاهر بيبرس في سنة ٦٦١هـ/١٢٦٦م بزيارة القدس، فتفقد أحوالها ووقف على مصالحتها وحاجاتها، وما يحتاجه المسجد الأقصى من عمارة، كما أنه نظر في الأوقاف ونظمها ورتب أوضاعها وكتب بضرورة حمايتها، وخصص خمسة آلاف درهم في العام تنفق على مصالح وحاجات المسجد الأقصى. وفي هذه الزيارة أمر ببناء خان خارج البلد للسبيل، وفوض أمر البناء والإشراف عليه إلى الأمير جمال الدين محمد بن نهار، وتمت عميلة إنجاز البناء سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م،^{٨٣} ويؤيد ذلك اللوحة الرخامية، التي

٨٢ عارف العارف، **المفصل**، ص ١٩٨ - ١٩٩.

٨٣ المقريزي، **السلوك**، ج ١ - ق ٢، ص ٤٩١، و ص ٥٢١: ابن تغري بردي. **النجوم الزاهرة**، ج ٧، ص ١٢١: الكتبي. **فوات الوفيات**، ج ١، ص ٢٤٣: الحنبلي. **الأنس الجليل**، ج ٢، ص ٨٧.

أثبت عليها الظاهر إنشاء الخان وتاريخ البناء، وقد عُثِرَ عليها سنة ١٩٦٠م في أثناء ترميم مسجد قبة الصخرة، وهي ضمن محفوظات المتحف الإسلامي، لكن تم فقد أجزاء من النقش بسبب تحطم اللوحة إلى شطرين.^{٨٤}

الهدف من إنشاء الخان: أقام الظاهر بيبرس هذا الخان حتى يكون خاناً للسبيل، ولفظ السبيل يحمل معنى واسعاً فالسبيل معناه الطريق وما وضح منه، وسبل الشيء جعله في سبيل الله تقريباً إليه، وابن السبيل هو المسافر كثير السفر أو الذي قطع عليه الطريق؛ وابن السبيل هو الغريب الذي انقطع، ويريد الرجوع إلى بلده فله من الصدقات نصيب.^{٨٥} لذا، فإن صفة السبيل التي أطلقت على الخان، تتفق تماماً مع طبيعة الأعمال والخدمات التي أقيم الخان من أجلها، فخان الظاهر لا تعود أهميته إلى كونه أقدم المنشآت المملوكية في فلسطين فحسب، بل لكونه أحد المؤسسات الاجتماعية الخيرية الرائدة في تاريخ فلسطين، التي قدمت خدمات جليلة إلى المسافرين وأبناء السبيل وعلى زائري مدينة القدس الذين حرصوا على شد الرحال إليها قادمين من مختلف الأصقاع الإسلامية متحملين مشقة السفر وعناء

٨٤ غوانمة، **تاريخ نيابة بيت المقدس**، ص ٨٧: سهيل زكار، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩٩.

٨٥ ابن منظور، **لسان العرب**، المجلد السادس، بيروت: دار صادر، ١٩٩٢، (مادة سبل). وفي سياق الحديث عن أهداف خان الظاهر وأنشطته، نشير إلى ما أورده يوسف غوانمة عن خان الظاهر الفصل الثالث الذي جاء بعنوان: الحياة الاقتصادية في نيابة بيت المقدس، وتحديدًا ضمن ما ورد عن التجارة الداخلية والخارجية. ودور الخانات في تنشيط التجارة. وتحقيق درجة كبيرة من الازدهار والنماء. أنظر: **تاريخ نيابة بيت المقدس**، ص ٨١-٨٨: ولكن كان من الأجدر والأنسب أن يتم الحديث عن خان الظاهر في الفصل الرابع، الذي خصص للنشاط السكاني والمؤسسات الاجتماعية في نيابة بيت المقدس. وتحدث فيه الباحث عن المؤسسات الاجتماعية في النيابة، كالحمامات والبيمارستانات، باعتبار خان الظاهر مؤسسة اجتماعية أهدافها خيرية دينية، قامت من أجل خدمة الزائرين والواردين للمدينة المقدسة. أنظر: **تاريخ نيابة بيت المقدس**، ص ١١٥-١٣٨: وفي الاتجاه نفسه ذهب الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور، عندما تحدث عن خان الظاهر في سياق الحديث عن الحياة الاقتصادية في بيت المقدس، وفي إطار الحديث عن عناية سلاطين المماليك بإعاش النشاط التجاري في المدينة. أنظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، **مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك**، في: **بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته**، القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨٧، ص ٥٢٤-٥٢٦. ونجد المؤرخ خليل عثمانة يضع المسألة في إطارها الصحيح، عندما يتحدث عن خان الظاهر في إطار «الثقافة وأحوال العمران أيام الأيوبيين والمماليك». وذلك في سياق حديثه عن المؤسسات الاجتماعية والخدمات العامة والمشاريع الخيرية. أنظر: خليل عثمانة، **فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي**، ص ٤٣٥-٤٣٦ و ٣٩٩-٤٤٠.

الارتحال الطويل، فيكون هذا الخان لهم الملجأ الأمين والنزل المعين.

مرافق الخان وأقسامه: اتفق خان الظاهر في تصميمه ومرافقه مع الخانات الأخرى، فاشتمل على الصحن المكشوف الذي يتوسطه حوض ماء وتحيط به مرافق الخدمات والاصطبلات في الطابق الأول، وغرف النوم والاستراحة في الطابق الثاني، ويمكن لنا أن نتخيل ونتوقع أنه كان يشتمل على عدد كبير من الغرف المعدة للنوم والراحة، وذلك لاستيعاب الأعداد الكبيرة من الزائرين للمدينة المقدسة، لكونه محطة مهمة على طريق المواصلات، هذا بالإضافة إلى الحمامات ومصادر المياه كالأحواض وصهاريج الجمع والآبار، ويحتمل أن يكون قد زُوِد بسور خارجي يحيط به وببوابة ضخمة مصفحة محكمة الإغلاق ليلاً، وخصوصاً أن الظاهر كان قد أرسل للخان من القاهرة إلى القدس باباً مميّزاً ضخماً ومصفاً، كان لقصر الخلفاء الفاطميين، بالإضافة إلى أبراج للدفاع والمراقبة، وذلك تمشياً مع التصميم التقليدي المعروف للخان من جهة، وبسبب الحاجات الأمنية للخان ونزلائه في ظل وجوده في منطقة ريفية زراعية، كانت بعيدة عن أسوار القدس وتفتقر إلى الكثافة العمرانية والسكانية آنذاك.

أما مرافق الخان وأقسامه بحسب ما وصلنا من إشارات مختصرة تتبعناها في عدد من المصادر التاريخية،^{٨٦} فتشمل ما يلي: ١. المسجد. ٢. الطاحونة لطحن القمح. ٣. الفرن لتجهيز الخبز. ٤. البستان لتوفير الغلات الزراعية. ٥. المطبخ لتجهيز الطعام وتقديمه إلى النزائين والمسافرين والمحتاجين. ٦. دكان أو مشغل لإصلاح النعال والأحذية للذين جاءوا من أماكن بعيدة وقطعوا مسافات طويلة وحطوا رحالهم على مشارف القدس.

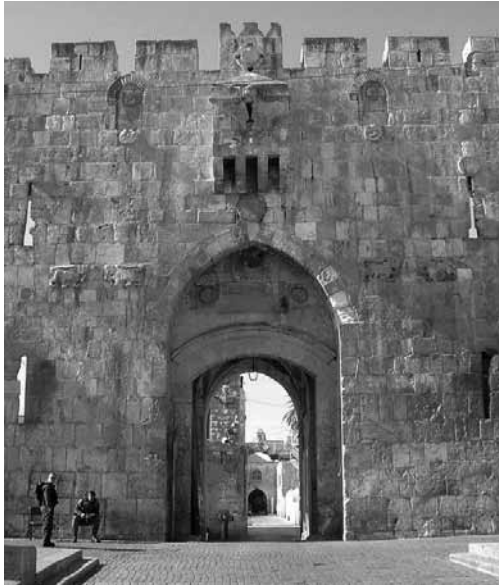
لنشك أن هذه المرافق تبين لنا طبيعة الخدمات المتوفرة في الخان، وتنبئ عن أعمال الخير التي حرص الظاهر بيبرس على فعلها، وأن تعبير ابن كثير: «وله أوقاف وصلات وصدقات»^{٨٧} يوضح حقيقة الدوافع لمثل هذه السياسة والأعمال التي حرص الظاهر على فعلها، والتي تجسدت في مؤسسات اجتماعية ومشاريع خيرية، ولعله اختص القدس وفلسطين بأهمها، هذه حقيقة أكدها

المؤرخون وأثبتوها، فهذا جلال الدين السيوطي يقول في معرض حديثه عن بيبرس: «وكان له صدقات عديدة»، ويعطي أمثلة عديدة عليها، منها: توزيعه كميات كبيرة من القمح سنوياً على الفقراء والمساكين والمحتاجين، وترتيب مطابخ خاصة في شهر رمضان تقدم مختلف أنواع الأطعمة إلى الفقراء والمساكين، ويكمل قائلاً: "وله أنواع من المعروف وأوقاف البر"^{٨٨}. وفي ظل شح المعلومات الوصفية فيما يتعلق بأنشطة خان الظاهر وخدماته الخيرية، فإنه يمكننا أن نستأنس بكل ما من شأنه أن يكون لدينا صورة واضحة عن هذه المؤسسة الخيرية الرائدة، وإذا ما انتقلنا خطوة في هذا الاتجاه، وبحثنا عما جاء في المصادر التاريخية بشأن الخان وطبيعة خدماته لانتضحت الصورة أفضل، فيذكر مجير الدين الحنبلي بأن الظاهر «شرط فيه أشياء من فعل الخير، من تفرقة الخبز على بابه وإصلاح حال النزائين به، وأكلهم وغير ذلك»^{٨٩}، أما المقرئ فيذكر بأن ريع وقف الخان يصرف في ثمن خبز ونعال لمن يرد إلى القدس من المشاة، بالإضافة إلى مبلغ من المال،^{٩٠} وهذا يتفق مع ما أورده ابن تغري بردي بأن ريع الوقف يصرف في خبز وقلوس وإصلاح نعال من يرد عليه من المسافرين المشاة.^{٩١}

يمكننا في ضوء ذلك كله، أن نرسم صورة لطبيعة الأنشطة والخدمات، التي قدمها الخان إلى عدد كبير من الناس من خارج فلسطين من مختلف البلاد والجنسيات، ومن داخلها من مدنها وقرائها ومن القدس وما حولها. لا بد وأن عشرات الألوف وأكثر، قد مروا بالمكان ونزلوا الخان، فوجدوا فيه ما ينشدون من راحة وماء وطعام، وترتيب وإصلاح لأوضاعهم وتهيئة أنفسهم لتحقيق حلمهم ومبتغاهم بدخول المدينة المقدسة التي طالما تلهفوا لدخولها ومشاهدة معالمها، والتبرك بمقدساتها ومزاراتها، وكثير منهم من أثار البقاء في القدس ومجاورة الحرم القدسي، على الرجوع إلى أرض الوطن، سواء كان الهند أو المغرب أو السودان، أو غيرها من البلاد والأوطان. ومن المؤكد أن هذه الأنشطة والخدمات كانت تنجز بشكل منظم وبعملية تكاملية، لا بد من استعراض بعضها:

٨٨ جلال الدين السيوطي. حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. صيدا - بيروت: المكتبة العصرية. ج ٢. ص ٧٦.
٨٩ الأئس الجليل. ج ٢. ص ٨٧.
٩٠ المقرئ. السلوك. ج ١ - ٢. ص ٥٢١.
٩١ ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة. ج ٧. ص ١٢١.

٨٦ الأئس الجليل. ج ٢. ص ٨٧؛ سهيل زكار. مصدر سبق ذكره. ص ٥٩٩؛ المقرئ. السلوك. ج ١ - ٢. ص ٥٢١؛ ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة ج ٧. ص ١٢١ و ١٩٤؛ الكنبي. فوات الوفيات. ج ١. ص ٢٤٣.
٨٧ ابن كثير. البداية والنهاية. ج ١٣. ص ٣٠٧.



صورة لباب الأسباط وتظهر فيها الأسود الأربعة التي نقلت من خان الظاهر في فترة ترميم السور.

الخان، يحتفظ بها المتحف الإسلامي في القدس وتظهر صراحة موضوع «إطعام الواردين من الفقراء والمساكين» كما أن وجود هذا المطبخ يتفق تماماً مع رسالة الخان وشموليته وطبيعة خدماته.

٥. جرت العادة في الخان أن يقدم مبلغاً من المال إلى النزلاء من المسافرين والزائرين والمشاة،^{٩٦} ويبدو أن هذه المبالغ كانت تُمنح للمحتاجين من الفقراء والمنقطعين وعابري السبيل.

٦. إصلاح النعال،^{٩٧} وهي خدمة مهمة، وخصوصاً لأولئك المشاة والزائرين والمرتحلين الذين جاؤوا من أصقاع بعيدة، فاهترأت نعالهم وحلَّ بها التلف من طول السفر ومشكلات الطريق، فلا شك أنها خدمة لا تقل أهمية عن توفير الماء والخبز والطعام.

٧. توفير خدمات أخرى أساسية وأولية، وإن لم تسعفنا النصوص بذلك، إلا إنه يمكن الاستدلال إليها وفقاً لضرورتها، وأهمها خدمة المياه وما يتبعها من أحواض وصهاريج وحمامات ومواضي، فلا بد وأن ذلك كله كان موجوداً، والأهم من ذلك هو المصدر المائي الآمن والدائم

٩٦ المصدر السابق، الصفحة نفسها: المقريزي، السلوك، ج ١ - ق ٢، ص ٥٢١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٢١.

٩٧ المصادر السابقة، الصفحات نفسها.

١. توفير خدمة النوم والراحة لأعداد كبيرة من الناس، في ضوء الموقع الاستراتيجي للخان في منطقة مشرفة على القدس تشكل مفتاح الطريق إليها، لا بد لحشود الزائرين والمسافرين من المرور منها.

٢. إعداد الخبز وتوزيعه على الأشخاص الذين ينزلون الخان، وعلى الذين يمرون من أمامه أو يأتون إليه خصيصاً ليأخذوا نصيبهم من الخبز، ويبدو أن العادة جرت على أن يوزع الخبز على بابه، وهذا ما يفهم من كلام مجير الدين الحنبلي: «... وشرط فيه أشياء من فعل الخير من تفرقة الخبز على بابه...»^{٩٨} إن تجهيز الخبز هنا هي عملية طويلة وشاقة تبدأ بزراعة الأراضي الموقوفة على الخان ومصالحه، وهي أراض واسعة جداً ويتبعها جني المحاصيل، وبيع بعضها للخان ونقل البعض الآخر كالحبوب، وتخزينه في مستودعات، ثم القيام بعملية الطحن في الطاحون الذي لا بد وأن يكون حجمه ضخماً، وطاقته الإنتاجية عالية، حتى يستطيع أن يلبي الطلب الكبير والحاجات المتزايدة لتلك الأعداد الكبيرة من الناس التي تأوي إلى الخان أو تمر من أمامه أو تأتي إلى بابه، والشيء نفسه يمكن أن يقال عن القرن وعمله وما يحتاج إليه من عمال وحطب.^{٩٩}

٣. لم يغفل الظاهر ببيرس الحاجات التعبدية والروحية لنزلاء الخان ورؤاده، فبنى لهذا الغرض مسجداً مناسباً وعيّن له إماماً يؤم الناس في الصلاة، ويعتني بشؤونه ليبقى عامراً مفتوحاً للمصلين،^{٩٤} ولا نستبعد أن هذا المسجد قام بدور تعليمي وتثقيفي، انطلاقاً من رسالة المسجد المعروفة، وفي ذلك دلالة واضحة على شمولية مرافق الخان وتنوع خدماته وأنشطته.

٤. ألحق بالخان مطبخاً مناسباً، بالرغم من عدم وجود نص صريح ومباشر، لكن يمكن أن نقول ذلك مستندياً إلى ما جاء في الأئس الجليل بتاريخ القدس والخليل: «وشرط فيه أشياء من فعل الخير... وإصلاح حال النازلين به وأكلهم وغير ذلك»^{٩٥} فتوفير الأكل، بحسب النص، يستدعي بالضرورة وجود مطبخ مؤهل لهذا الأمر، ويعزز ذلك بقايا لوحة حجرية تأسيسية، أثبت عليها وقف

٩٢ مجير الدين الحنبلي، الأئس الجليل، ج ٢، ص ٨٧.

٩٣ المصدر السابق، نفس الصفحة: غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص ٨٧.

٩٤ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٩٤؛ مجير الدين الحنبلي، الأئس الجليل، ج ٢، ص ٨٧.

٩٥ مجير الدين الحنبلي، الأئس الجليل، ج ٢، ص ٨٧.

الذي زوّد الخان بالماء، وقد يكون هذا المصدر قناة تغذيتها إحدى الينابيع، أو صهريجاً ضخماً تتجمع فيه مياه الأمطار. وهذا يندرج ضمن السياسة التي درج عليها المماليك في موضوع الاهتمام بالمنشآت المائية والحرص على إقامتها، فكانت على رأس سلم أولوياتهم. وكانت مدينة القدس، في هذا الإطار، محور اهتمام السلاطين والأمراء المماليك، ليس بسبب شح الموارد المائية فيها فحسب، بل بسبب الحاجات المتزايدة لسكان المدينة وزوّارها ونزلاتها الكثير. وإذا كان بيبرس قد حرص على إقامة الإنزال وغيرها، فمن باب أولى حرصه على إقامة المنشآت المائية، وقد سار على نهجه من جاء بعده من السلاطين، وفي هذا السياق قام المؤرخ خليل عثمانة في مستهل حديثه عن المشاريع المائية المبكرة في القدس خلال العهد المملوكي بجلاء الصورة وتصويب أوضاعها، فقد تحدث عن بركة أنشأها الظاهر بيبرس في القدس كانت قد حملت اسمه، لكن المصادر لم تحدد مكانها، يقول عثمانة: "إلا إنها (أي البركة) تكون بذلك أول مشروع للرّي يجري في المدينة في العهد المملوكي. ثم توالى بعدها إنشاء مشاريع أخرى...^{٩٨} وبما أن المصادر أغفلت تحديد موقع البركة، هل هناك علاقة تجمع بين خان الظاهر وبركة الظاهر؟ أم هل نكون أوغلنا في الخيال إذا ما قلنا: لعل بركة الظاهر كانت في موقع قريب من الخان، أو لعلها كانت أحد مرافقه؟ وعلى كل الأحوال، فإن ذلك لن يغير من حقيقة الأمر، بأنه كان لخان الظاهر مصدره المائي، الذي ربما كان صهريجاً أو قناة أو الاثنين معاً، وخصوصاً أنه يوجد نبع ماء معروف في المنطقة القريبة، التي شيدت فيها قرية لفتا، وهو ما عرف بنبع "نفتوح". ولا يغيب عن ذهننا صهريج الماء الضخم الذي بناه الظاهر بصفد، ليكون أبرز مرافقها وأصل عمارتها ومنبع حياة سكانها، وليبقى الأمر مفتوحاً للبحث والدراسة.

قضايا تلقي مزيداً من الضوء على خان الظاهر وأهميته

كتاب وقف الخان يقرأ في قلعة الجبل: ذكر المقريري في كتابه السلوك ضمن حوادث سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م أن كتاب الوقف الخاص بالخان قد قرئ في مجلس السلطان

٩٨ خليل عثمانة. فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي. ص ٤٢٥؛ وعن المشاريع المائية بوجه عام، أنظر المصدر نفسه، ص ٤٢١ - ٤٢٧؛ وحول المشاريع المائية في العهد المملوكي. أنظر: الأئس الجليل، ج ٢، ص ٥٩، ٩٩، ٢٨٤، ٢٨٥، ٣٢٣، ٣٣٠، ٣٣١.

بقلعة الجبل بمدينة القاهرة، بحضور قاضي القضاة، تاج الدين بن بنت الأعز، الذي كتب منه عدة نسخ.^{٩٩} وفي ذلك دلالة واضحة على أهمية الخان والعناية الخاصة به، وتأكيداً صارماً من السلطان على حماية أوقاف الخان والمحافظة عليها، باعتبارها الركيزة التي يقوم عليها الخان ويستمر عن طريقها في أنشطته، وتم إثبات نص الوقف على لوحة حجرية من الرخام، يوجد أجزاء منها في المتحف الإسلامي بالقدس يظهر عليها أسماء المناطق الموقوفة، فقد ورد: "...والنصف من لفتا من ضياع القدس"، وقد ذكر المقريري أن الظاهر بيبرس قد أوقف عدة قرى بأعمال الشام والقدس، يصرف ريعها على مصالح الخان، أما مجير الدين الحنبلي فذكر "نصف قرية لفتا وغيرها من القرى بأعمال دمشق"، والقرى الأخرى هي: قيراط ونصف في قرية الطرة، الواقعة قرب مدينة إربد شمالي الأردن، وأراض تتبع قرية المشيرفة من أعمال بصرى، وأثبت على اللوحة المذكورة الهدف من الوقف: "...إطعام الواردين من الفقراء والمساكين تقبل الله منه وضاعف حسناته"،^{١٠٠} إن هذه العبارة تعزز ما ذهبنا إليه أعلاه من أن المطبخ كان أحد مرافق الخان المهمة.

باب الخان «من القاهرة إلى القدس»: وصورة أخرى تعبر عن مدى اهتمام الظاهر بالخان، وهي قراره بنقل باب كان لقصر الخلفاء الفاطميين بالقاهرة ليكون أحد أبواب الخان الرئيسية، ويقول المقريري أنه باب القصر المعروف بباب العيد، وقد سمي بذلك لأن الخليفة كان يخرج منه إلى الصلاة في أيام العيد. ويضيف القلقشندي أن باب العيد هو باب البيمارستان العتيق، ويقول ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة أنه نقل من دهليز كان للخلفاء المصريين بالقاهرة، ولعله باب دهليز القصر الموصل إلى البيمارستان.^{١٠١}

خان الظاهر بعد أكثر من مئتي عام على بنائه: لقد سجل لنا مجير الدين الحنبلي مشاهدته للوضع الذي آل إليه الخان في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي،

٩٩ المقريري، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٠٥.

١٠٠ المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٢١؛ مجير الدين الحنبلي، الأئس الجليل، ج ٢، ص ٨٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج ٧، ص ١٢١؛ غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ٨٧ - ٨٨؛ العارف، المفصل، ص ١٩٨.

١٠١ المقريري، السلوك، ج ١ - ق ٢، ص ٤٩١ والحاشية رقم واحد الصفحة نفسها؛ الحنبلي، الأئس الجليل، ج ٢، ص ٨٧؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة: دار الكتب الخديوية، ١٩١٣ م، ج ١٣، ص ٣٥٠؛ غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص ٨٨.

وذلك في كتابه **الأنس الجليل**، الذي أنجز تأليفه في سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٤م، أي بعد مرور قرابة ٢٣٠ عاماً على بناء الخان، إذ أوضح أن الخان قد تعطلت خدماته وما كان يتم فيه من أعمال الخير، نتيجة مصادرة أوقاف الخان في الشام (أعمال دمشق)، معللاً ذلك بـ «فساد الزمان وتلاشي الأوضاع»،^{١٠٢} فيما يعبر، برأيي، عن فهم دقيق وتفكير واع، يرصد الأحداث والمتغيرات، فيحلل ويستنتج، ليضع الأمور في سياقها المنطقي والصحيح، وهذا ما يميز المؤرخ القدير عن غيره في أدواته وملكاته. وبهذا، فقد أحسن مجير الدين في تشخيص مسألة التراجع التي حلت بهذه المؤسسة، إذ وصلت إلى مرحلة توقفها عن تقديم خدماتها الخيرية والمجانية، وذلك لم يكن إلا صدى لأوضاع صعبة وعامة كانت تمر بها الدولة المملوكية في تلك المدة، أهمها الفتن والتزاعات الداخلية، التي وصلت إلى حد الانتشاق عن الحكم المركزي في القاهرة؛ وما كان يتبع ذلك من مصادرات واسعة للأوقاف، مثلما حدث عند انشقاق نائب حلب، الأمير حكم العوضي، في أوائل القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي؛^{١٠٣}

بالإضافة إلى عوامل أخرى عديدة منها الأخطار الخارجية وتحول طرق التجارة، والأعباء المالية والكساد التجاري، وانتشار الطاعون والأوبئة.^{١٠٤} فلا شك أن هذه الأوضاع بمجملها، قد أثرت سلبياً في مختلف مؤسسات المجتمع، فمنها ما تراجع في أدواته ومضمونه، ومنها ما انتهى في وجوده وحتى في تاريخيته ورمزيته. لكن بالرغم من ذلك كله، فقد بقي خان الظاهر، حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي على أقل تقدير، معلماً مهماً من معالمها، له حضوره في أذهان الناس، بل وفي قيم وطقوس حياتهم ومناسباتهم، كما شكّل وجود الخان دافعاً لبعض الأعيان والموظفين أن يبنيوا بيوتاً وقصوراً لهم بجواره، بعيداً عن ضوضاء المدينة، وخصوصاً أن المنطقة تتمتع بمزايا عديدة، من حيث الموقع المشرف والهواء النقي والطبيعة الخلابة وإمكان ممارسة النشاط الزراعي.

يبدو لنا أن العادة جرت في ذلك الوقت، أن يعرج من يأتي إلى القدس أو يمر منها من السلاطين والأمراء والقادة، سواء للزيارة أو لمهمات رسمية؛ أن يعرجوا إلى الخان أولاً، فيبيتون فيه أو يستريحون فترة من الوقت،

١٠٢ مجير الدين الحنبلي **الأنس الجليل**. ج ٢، ص ٨٧، وص ٣٨٢ - ٣٨٣.

١٠٣ عثمانة. **فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي**. ٣٦١ - ٣٦٣.

١٠٤ للمزيد حول موضوع عوامل ضعف الدولة المملوكية، أنظر: سعيد عبد الفتاح عاشور **مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك**. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، لا تاريخ. ص ٢١٧ - ٢٨٢.

وقد يترافق ذلك مع إقامة مخيم بجوار الخان، لاستيعاب أعداد المرافقين، وتوفير الحراسة والأمن اللازمين، ففي سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٥م توجه السلطان المملوكي الأشرف قايتباي إلى زيارة فلسطين، وكان محباً للتنقل والسفر، فزار الخليل أولاً، ثم غادرها قاصداً القدس، وعند اقترابه منها لم يدخلها مباشرة، وإنما واصل مسيره باتجاه خان الظاهر، فنزل بمخيمه بجواره، واستراح بعض الوقت، ثم توجه موكب السلطان إلى القدس، فزار معالمها ومقدساتها،^{١٠٥} ولعل ذلك (أي النزول في الخان)، كان من المراسيم السلطانية والبروتوكولات الرسمية التي يحرص عليها من أراد أن يأتي إلى القدس وجوارها، سواء بهدف الزيارة أو لمهمة رسمية. ومن ذلك ما سجله لنا مجير الدين الحنبلي كشاهد عيان، باعتباره أحد أبناء القدس وبصفته عالماً ومؤرخاً، ففي مناسبة أخرى شهد الخان نزول أحد الأمراء، وكان يوم الأحد ١٧ ذي الحجة سنة ٨٩٥هـ الموافق ٣١ تشرين الأول سنة ١٤٩٠م، نزل الأمير أقبردي الدوادر الكبير خان الظاهر بينما كان متوجهاً إلى منطقة الغور لقتال العرب المتمردين، فأمضى فيه هو ومن معه يومين من الراحة، استعداداً على ما يبدو للمهمة القتالية والحملة التأديبية، ونيل شرف زيارة الأقصى، وبالفعل ففي اليوم الثالث دخل مدينة القدس، وزار الأقصى وصلى فيه ركعتين، ثم انطلق للجمع نحو الغور، ومن المحتمل أن الأمير نفسه قد نزل الخان مرة أخرى بينما كان متوجهاً من الرملة إلى الغور في المهمة ذاتها.^{١٠٦} ومن المتوقع أن خان الظاهر قد ارتبط بمراسيم استقبال الشخصيات الرسمية، فعند وصول نائب القدس، الأمير جان بلاط «القاهرة المحروسة» في الوقت الذي استدعي فيه إلى الحضور إلى «الأبواب الشريفة»، في أعقاب شكوى رفعت ضده، وفرضت عليه غرامة مالية، وصدر مرسوم سلطاني بعدها باستمراره في وظيفته ككاتب للقدس، وألبس التشريف المستمر بالحضرة الشريفة، ورجع إلى القدس، وقبل دخوله المدينة، وكان ذلك في ١٢ ربيع الثاني من سنة ٨٩٩هـ / كانون الثاني ١٤٩٤م، وكانت الترتيبات قد أعدت لاستقباله عند خان الظاهر، يتابع مجير الدين الحنبلي في «يومياته» المدونة في الشطر الأخير من كتابه، كمتابع وشاهد عيان للحدث: «وكان يوماً كثير المطر لم ير مثله في تزامم العالم، وركب الناس للقائه من القضاة والأعيان، واستمر المطر ينزل عليهم من عند خان الظاهر إلى دار النيابة، ودخل بصحبته القاضي برهان الدين

١٠٥ المصدر السابق. ص ٢١٢ - ٢١٦، الحنبلي. **الأنس الجليل**. ج ٢، ص ٣١٤ - ٣١٥.

١٠٦ المصدر السابق. ج ٢، ص ٣٥٥، ٣٦٦.

الجوهري وعليه خلعة كاملة بسمور. ولم يعهد دخول حاكم لبيت المقدس في مثل هذا اليوم إلا جقمق الظالم الفاجر... سنة سبع وسبعين وثمانمائة»^{١٠٧}.

اعتاد، كما ذكرنا، بعض الأعيان والأغنياء أن يبنوا قصوراً لهم بجوار خان الظاهر، مستفيدين من توفر الأمن والمزايا الأخرى للمكان، وبحسب المؤرخ خليل عثمانة «فلم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى تحول المكان إلى محلة سكنية راقية يقيم بها برجوازيو المدينة»^{١٠٨}، فقد أقام قاضي القضاة، تاج الدين الديري، عمارة هائلة في أرضه المغروسة بالعنب والأشجار المثمرة عند خان الظاهر، وأنفق في بنائها ما يقرب من عشرة آلاف دينار، وكان تاج الدين قد درس بالمعظمية وناب عن والده في القضاء بالديار المصرية، وتولى قضاء الحنفية بالقدس، ونفذت كلمته وعظم أمره، وتولى مشيخة المؤيدية بالقاهرة، وكان يتردد ما بين القاهرة والقدس، وتوفي بغزة سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م. صدر في سنة ٨٧٨هـ/١٤٧٣م مرسوم بتولي جمال الدين الديري القضاء في القدس، وكان مقيماً في القاهرة، فتوجه إلى القدس وقبل دخولها نزل بقصر ابن عمه تاج الدين الديري، فخرج الناس من القضاة والأعيان للقائه عند خان الظاهر، وبهذا، فإن استقبال الشخصيات عند الخان وانطلاق الموكب إلى القدس، لم يقتصر على السلاطين والأمراء بل شمل القضاة كذلك.^{١١٠}

وبالقرب من خان الظاهر كان قبر شهاب الدين أبو الخير بادار بن عبد الله القرنوي البصير، نزيل القدس، الذي كان يلقي الدروس والمواظ على الناس بقبة السلسلة بصحن مسجد قبة الصخرة، وقد قال الشيخ بدر الدين محمود العجلوني عنه: «ما عرفت الله إلا بملزمة مجالسه»، ويقول مجير الدين الحنبلي:

١٠٧ نفسه. ج ٢، ص ٣٦٩، ٣٦٨. وعن الأمير جقمق. أنظر المصدر نفسه، ص ٢٩٣ - ٢٩٤؛ ومما يجدر ذكره أن مجير الدين الحنبلي اعتاد على تسجيل يومياته في المدة التي سبقت تأليف كتابه الأنس الجليل. التي كان شاهداً فيها على كثير من الأحداث التي ضمنها كتابه. وهذا ما يستشف من طبيعة سرده للأحداث في الشطر الأخير من كتابه. وما يتضح من خاتمة كتابه التي يقول فيها: «فإني اجتهدت في تحرير ما نقلته وتبعت التراجم والحوادث ما استطعت وجمعتها من كتب وأوراق متفرقة وكثير منها من حفظي للوقائع والاطلاع عليها.....». أنظر الخاتمة في نهاية الجزء الثاني، ص ٣٨٢ - ٣٨٤؛ ويبدو أن مجير الدين الحنبلي قد بدأ يسجل يومياته للوقائع والأحداث منذ سنة ٨٧٣هـ فصاعداً حتى سنة ٩٠٠هـ.

١٠٨ خليل عثمانة. فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي. ص ٤٣٦.

١٠٩ الحنبلي. الأنس الجليل. ج ٢، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

١١٠ المصدر السابق. ص ٢٢٢، ٢٩٧.

«وقبره بظاهر القدس الشريف بالقرب من خان الظاهر، وهو معروف ويزار، وعنده إيوان به محراب على جانب الطريق»، وتوفي سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م،^{١١١} ولعل المنطقة عرفت باسم الشيخ بدر نسبة إليه، ولوجود قبره فيها. وإذا كانت المصادر قد وثقت وجود هذا القبر الذي اندثرت معالمه، فلا بد وأن قبوراً أخرى عديدة كانت في المكان نفسه، وليس بعيداً عن المكان، فهناك مقام الصحابي الجليل عكاشة، الذي بني إلى جواره مسجد في مرحلة متأخرة، وقريباً من المقام توجد القبة القيمرية التي وصفها مجير الدين الحنبلي بأنها قبة محكمة البناء بظاهر القدس من الناحية الشمالية الغربية، والتي تنسب إلى مجموعة من الشهداء المجاهدين، وهي من منشآت منتصف القرن السابع الهجري، ويقع المبنى في الحي الذي كان يعرف بحي النبي عكاشة، ويطلق عليه اليوم «زخرون موشيه» في شارع «شتراس»^{١١٢} لكن ما أردنا قوله أن وجود مثل هذه القبور والمقامات في منطقة خان الظاهر ومحيطها القريب يثبت، في نهاية الأمر، حيوية المكان المستمدة من وجود هذا المجمع الخيري الذي كان معلماً من معالم القدس مدة لا تقل عن ثلاثة قرون.

لكن مسألة النشاط العمراني والبناء خارج أسوار القدس، التي تعود بداياتها وازدهارها، بحسب التقديرات، إلى منتصف القرن التاسع عشر، بحاجة إلى إعادة النظر فيها، بتوجيه مزيد من الجهود البحثية لهذه المسألة. وفي هذا السياق نجد المستشرق الألماني الكسندر شولش يقول: «حتى أواسط القرن التاسع عشر كانت القدس لا تزال ضمن حدود الأسوار». ويتابع قوله بأن الازدهار الحقيقي في البناء بدأ بعد حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦م)، مدلاً على ذلك بالعديد من الأبنية التي أقيمت في ذلك الوقت بدءاً من المجمع الروسي الضخم «المسكوبية» شمال غربي المدينة، على بعد كيلو متر واحد من باب الخليل، ثم توالى بعد ذلك بناء الكنائس والأديرة والكنس والمساجد والمدارس والمستشفيات والكنائس، وقد استمر هذا من دون انقطاع حتى الحرب العالمية الأولى. ويعطي أمثلة على هذه الأبنية، مثل كنيسة المخلص التي تم تكريسها بحضور الإمبراطور الألماني سنة ١٨٩٨م، ثم يسرد الكاتب المدارس التي أقيمت خارج الأسوار في هذه المدة، وهي في معظمها مدارس تتبع جهات أوروبية ومجموعات مسيحية تبشيرية وأخرى يهودية، ثم يتحدث

١١١ نفسه. ج ٢، ص ١١٠.

١١٢ علي سعيد خلف. شيء من تاريخنا. القدس: وكالة أبو عرفة للصحافة. ١٩٧٩. ص ١٧ - ١٩؛ الحنبلي. الأنس الجليل. ج ٢، ص ٤٨ - ٤٩؛ كامل العسلي. أجدادنا في ثرى بيت المقدس. ص ١٠٤ - ١١٦.

لتبرير وجهة النظر تلك؟ لم يخرج عادل مناع كثيراً عن ذلك الإطار، الذي بدوره حصر إقامة المقدسين منذ أواسط القرن ١٦م حتى أواسط القرن ١٩م، في حارات المدينة وبيوتها القائمة داخل الأسوار باستثناء، بعض العائلات التي شيدت قصوراً (ببوتاً صيفية حصينة) خارج الأسوار، لتنزل فيها في أشهر الصيف الحارة، بالإضافة إلى بعض العائلات، التي عملت في الزراعة وتربية المواشي، وسكنت البقعة ووادي الجوز والشيخ جراح وغيرها، ولكن من دون أن يحيلنا إلى تلك الوثائق والسجلات التي استند إليها، ومن دون أن يبين لنا التاريخ أو الوقت الذي ترقى إليه تلك القصور، مستنداً في ذلك إلى دراسة شمعون لندمان، **أحياء أعيان القدس خارج أسوارها في القرن التاسع عشر**.^{١١٠}

ولنا أن نتساءل، إلى أي مدى ستبقى دراستنا التاريخية حول القدس العثمانية متأثرة بالدراسات الاستشراقية والصهيونية؟ التي تربط أي تطور وازدهار في بلادنا بأحداث ومؤثرات خارجية أوروبية، ويهودية صهيونية، وهل حادثة بناء المسكوبية وما تلاها من أبنية وعمائر أوروبية ويهودية، هي ما شجع المقدسين، حقيقة، على البناء خارج أسوار مدينتهم؟! أم أن المسألة أقدم من ذلك بكثير؟ وهل ستبقى تلك الدراسات المقولبة ذات النظرة الأحادية الإقصائية، مثل دراسة شمعون لندمان وبن أريه، التي أشرنا إليها، توجه كتاباتنا التاريخية حول القدس وتؤثر فيها؟ تلك الدراسات التي ركزت على موضوع الاستيطان اليهودي خارج أسوار القدس، وحاولت إظهار أن الفضل يعود إلى اليهود في موضوع التوسع العمراني وازدهاره خارج الأسوار، وأن اليهود هم أول من استوطن خارج الأسوار، ليناقض لندمان نفسه، بحسب الباحث موسى سرور، عندما يشير إلى أن قصور بعض أعيان القدس، كانت قد أقيمت خارج الأسوار منذ أوائل القرن الثامن عشر، كقصر الشيخ محمد الخليلي الذي شيد سنة ١٧١١ (ويقصد قصر الساهرة الذي شيد على مرتفع من الأرض، مقابل باب الساهرة، مع العلم أن هناك قصراً آخر بناه الشيخ الخليلي، في منطقة البقعة، في أواخر القرن السابع عشر الميلادي)، من دون أن ننسى تلك القصور المبكرة التي تعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي، والتي ذكر بعضها مجير الدين الحنبلي، مع إمكان وجود قصور، بل وتجمعات وأحياء

عن البنايات أو الأحياء السكنية اليهودية، التي شيدت في المدة نفسها، وتحديداً خلال ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر، في الشمال الغربي من القدس، بدعم ومبادرة من جمعيات يهودية، وقد انتظمت في الصفوف وتوحدت في الأشكال، ويختم شولش بقوله: «وفي الوقت نفسه ظهرت إلى الوجود ضواح عربية جديدة شمال المدينة وجنوبها، وكان رواد التوسع السكني العربي خارج الأسوار من العائلات الإسلامية البارزة والغنية». وبقي عصام نصار في الإطار نفسه متفقاً مع شولش في مسألة التوسع العمراني خارج الأسوار، وذلك في سياق تتبعه لملامح التغيير في مجتمع مدينة القدس ولمظاهر الحداثة فيه في القرن التاسع عشر، ولكن من دون أن يحيلنا في ذلك على شولش، معتبراً في الوقت نفسه، أن الجالية اليهودية هي أول من انتقل إلى السكن خارج الأسوار، مستنداً في ذلك إلى دراسة روشيل ديفيس التي أوردت تلك المعلومة نقلاً عن الكاتب اليهودي بن أريه في دراسته: **القدس في القرن التاسع عشر: ولادة المدينة الجديدة**، ولكنها أوردتها في سياق مناقشة وطرح الإشكالات التي تثيرها مسألة ربط التوسع العمراني خارج الأسوار بالنصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهو ما سنشير إليه بعد قليل.^{١١٣} ووفقاً للباحث أمين مسعود أبو بكر، فإن النشاط العمراني خارج الأسوار، بدأ وازدهر في المدة نفسها، متمثلاً في تشييد المبنى الروسي «المسكوبية» سنة ١٨٦٠، ويعزي هذا الازدهار في البناء إلى بزوغ عهد جديد من الأمن والاستقرار وقرب انتهاء الحرب الأهلية، ولم يبتعد أبو بكر كثيراً عما قاله شولش، إذ اعتبر بناء المسكوبية العامل الذي شجّع الأسر الغنية المقدسية على ترك السكن داخل السور، والانطلاق خارجه لبناء قصورهم الضخمة شمالي المدينة، بحيث أصبحت هذه القصور نواة أساسية للأحياء الإسلامية فيما بعد. يستند أبو بكر في ربط النشاط العمراني خارج الأسوار بالنصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلى خلو سجلات محكمة القدس الشرعية السابقة من بناء المسكوبية، ومن أي إشارة إلى مشاريع عمرانية أو بيوت سكنية خارج الأسوار، ولأن أدبيات الرحالة الأجانب لم تزودنا بوصف مشاريع عمرانية في الخارج،^{١١٤} ولكن إلى أي مدى يمكن اعتبار ذلك كافياً

١١٣ الكساندر شولش. **القدس في القرن التاسع عشر** في كتاب: **القدس في التاريخ**، تحرير وترجمة كامل جميل العسلي. عمان: الجامعة الأردنية - عمادة البحث العلمي، ١٩٩٢، ص ٢٨٢ - ٢٨٣؛ عصام نصار. **القدس كمدينة عثمانية** في: **حوليات القدس**، عدد ٧، ربيع - صيف ٢٠٠٩، ص ٥٢ - ٥٣.

١١٤ أمين مسعود أبو بكر. **ملكية الأراضي في متصرفية القدس ١٨٥٨ - ١٩١٨**. عمان: مؤسسة عبد الحميد شومان، ١٩٩٦، ص

سكنية أقدم من ذلك بكثير، كما سنشير إليه فيما تبقى من أسطر. وبالرغم من العناية الكبيرة التي يوليها موسى سرور بوثائق محكمة القدس الشرعية، وأهميتها في كتابة تاريخ القدس، لكننا قد لا نستبعد اتفاقه مع أمين أبو بكر في مسألة خلو سجلات محكمة القدس الشرعية السابقة على بناء المسكوبية (١٨٦٠) من أي إشارة إلى مشاريع عمرانية أو بيوت سكنية خارج الأسوار، وخصوصاً أن سرور عندما يناقش موضوع أهمية وثائق المحكمة الشرعية، كمصدر تاريخي أولي، يبدأ بالحديث عن مسألة البناء خارج الأسوار، مبيّناً أن هذه السجلات تورد معلومات مفصلة ودقيقة لموضوع البناء وتطوره خارج الأسوار، ويعطي على ذلك مثلاً لوقفية يعود تاريخها إلى سنة ١٣٠٥هـ - ١٨٨٧، وهو تاريخ متأخر نسبياً في مسألة التوسع العمراني خارج الأسوار، مع إمكان وجود وثائق تسبق هذا التاريخ، يمكن أن يستشهد بها الباحث. وبهذا، فإن هذا الموضوع بحاجة إلى مزيد من البحث والدراسة، وكان لروشيل ديفيس السبق والفضل في إثارة إشكالات المسألة وخلفياتها، فيما يتعلق بأنماط البناء وتلك المنشآت العمرانية التي ظهرت في مراحل مبكرة خارج الأسوار. لقد أصابت روشيل جزءاً كبيراً من الحقيقة في دراستها الرائدة والقيمة القدس العثمانية: نمو المدينة خارج الأسوار، فبدأت بالتنويه إلى المنشآت والأبنية العمرانية المتنوعة التي أنشئت خارج الأسوار ما قبل منتصف القرن التاسع عشر، وخصوصاً في العهد المملوكي من منازل صيفية وأربطة وزوايا وخانات ومقامات ومساجد وكنائس ومقابر وغيرها، والمهم هو تلك الأفكار والملاحظات المنهجية التي أشارت إليها، فقد تعرضت لمسألة تجاهل معظم كتابات الباحثين الإسرائيليين والصهيونيين لمؤلفات المؤرخين والجغرافيين العرب حول فلسطين والقدس، التي وصف بعضها المنشآت خارج الأسوار (الحنبلي، اللقيمي، النابلسي)، بينما اعتمدت بإفراط على أدب الرحلات للحجاج الأوروبيين (ذوي الدوافع الدينية التوراتية)، كما تم تجاهل تلك الأنماط من البناء خارج الأسوار، ممثلة في المنازل الصيفية العديدة وغيرها. من الإشكالات الأخرى، وفقاً للباحثة، النموذج النظري لتلك الدراسات الذي ركّز على نمط معين من البناء أو ما سُمي بالأحياء المنظمة (اليهودية والأوروبية)، وأهمل الأساليب الأخرى (العربية والمبكرة) في بناء المنازل وظهرت التجمعات السكنية، كأنها شذوذ عن القاعدة، وبهذا، فإنها لم تجد طريقها إلى كتب التاريخ، وتتابع ديفيس: «إن التوثيق الدقيق لمشاريع البناء في المرحلة الأولى، والشبيه بالتوثيق المتعلق بمشاريع البناء اليهودية، شبه

غائب، أو على الأقل لم تجر دراستها بصورة جدية، في الوقت الذي كانت فيه صفقات شراء الأراضي والمباني اليهودية والمسيحية موثقة جيداً...»، وفي ضوء ما أوردته ديفيس من ملاحظات عديدة مهمة، لم نأت عليها جميعاً، يمكن لنا أن نفهم على نحو أفضل ما ذكرته عن مشاريع البناء خارج الأسوار، خصوصاً ما يتعلق بالأحياء اليهودية، إذ نقول: «تتفق «تواريخ القدس» على أن أول ما بني خارج أسوار المدينة القديمة كان مشكنوت شآنانيم، وهو مشروع بناء يهودي قام به موزس مونتنغوري، وكان عبارة عن عشرين منزلاً. بدأ بناؤها سنة ١٨٥٥م، وأنجز في سنة ١٨٦٠م». ولعل ديفيس تقصد بـ «تواريخ القدس»، تلك الدراسات التي ركّزت على «الأحياء المنظمة» وما يسمى بـ «المشاريع الموثقة»، وتمثلها كتابات الباحثين اليهود والصهاينة، وكتابات الآخرين (عرباً وأوروبيين)، والتي استندت إلى الأولى ورددت ما جاء فيها من دون تمحيص وتدقيق، أو من دون قدر مناسب منهما، وذلك كما بيّنا^{١١٦}. وبما أن الأمر كذلك، فإننا لا نجافي الحقيقة، إذا ما حاولنا أن نثبت أن عملية البناء خارج الأسوار من حيث جذورها وتوسعها، تعود إلى مراحل أبعد مما ذهب إليه كثير من الباحثين، محاولين أن نرسم حدود البداية الحقيقية للتوسع خارج الأسوار ببناء خان الظاهر سنة ١٢٦٣م، مع وجود أبنية ومنشآت أقدم، ولكنها ليست سنة ١٨٦٠م كما ذهب إلى تلك الدراسات التي أشرنا إليها أعلاه. وإذا ما كانت الطواحين الهوائية التي شيدت في زمن الحكم المصري في القدس (١٨٣١م - ١٨٤٠م)، عند الزاوية الجنوبية الغربية لمقبرة ماملأ، لا تعتبر أول مشروع عمراني خارج

١١٦ موسى سرور، سجلات محكمة القدس الشرعية: إشكاليات منهجية، في كتاب أوراق عائلية دراسات في التاريخ الاجتماعي المعاصر لفلسطين. تحرير: زكريا محمد. خالد قرّاج. سليم تماري. عصام نصّار القدس: مؤسسة الدراسات المقدسية. ٢٠٠٩. ص ٢٣ - ٣٦. موسى سرور، إشكالية كتابة تاريخ القدس في أواخر العصر العثماني في: المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد ١١٤/٢٩، ٢٠١١. ص ٤١ - ٧٠ وتحديداً ص ٥٤ - ٥٥: روشيل ديفيس. القدس العثمانية: نمو المدينة خارج الأسوار في: سليم تماري (محرر). القدس ١٩٤٨: الأحياء العربية ومصيرها في حرب ١٩٤٨. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية. ٢٠٠٢. ص ٢٦ - ٣٠: وحول حياة الشيخ محمد الخليلي وتعميراته. وعن قصري الساهرة والبقعة. أنظر: سميح حمودة. تعميرات الشيخ محمد الخليلي في فلسطين في كتاب: دراسات تراثية. القدس: جمعية الدراسات العربية. ١٩٨٦. ص ٧٩ - ٩٥: محمد الخليلي. تاريخ القدس والخليل عليه السلام. حققه وكتب مقدمته وحواشيه ووضع فهرسه محمد عدنان البخيت ونوفان رجا الحمود السوارية. لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي. ٢٠٠٤. أنظر الدراسة حول الكتاب. (الشيخ محمد الخليلي: ولادته ونشأته وتعليمه) ص ١١٩ - ٣.

الأسوار، لأن عمرانها كان مرهوناً بالجيش المصري المرابط هناك، كما لم يتبعها أية أعمال عمرانية أخرى خارج السور، وذلك وفقاً لما ذهب إليه أمين أبو بكر،^{١١٧} فما بال المنشآت الأخرى كخان الظاهر والبنائيات الأخرى بجواره والقريبة منه، ونختم بذكر بعض الإشارات المهمة التي تتبعناها في كتاب **الأنس الجليل**، الذي يسهب الحديث فيه عن أبنية القدس وعمائرهما ومشاهدتهما من داخل الأسوار وخارجها، واصفاً القدس بالمدينة العظيمة المحكمة البناء بين جبال وأودية؛ ثم وثق لنا مجير الدين الحنبلي، بصورة بارعة، الأبنية والعمائر المقدسية القائمة، وهي في معظمها مملوكية، فيصفها بقوله: «وأما بناء بيت المقدس فهو في غاية الإحكام والإتقان، جميعه بالأحجار البيض النحت، وسقفه معقود، وليس في بنائه لبن ولا في سقفه خشب. وقد ذكر المسافرون: أنه لم يكن في جميع المملكة أتقن عمارة ولا أحسن رؤية من بناء بيت المقدس».^{١١٨} ومن الأبنية والعمائر التي ذكرها ووصفها، خارج السور، الزاوية الجراحية، الواقعة بظاهر القدس من جهة الشمال، أوقفها الأمير حسام الدين الجراحي سنة ٥٩٨ هـ - ١٢٠١ م، وقريباً منها نحو القبلة «قبور جماعة من المجاهدين، يقال إنهم من جماعة الجراحي»، وكانت هذه الزاوية نواة لحي سكني، وهو ما يعرف الآن بحي الشيخ جراح، والقبلة القيمرية بظاهر القدس من جهة الشمال الغربي، وزاوية الشيخ خضر بظاهر القدس من جهة الغرب، بناها الظاهر بيبرس للشيخ خضر المهراي الكردي سنة ٦٦٠ هـ - ١٢٦١ م، وزاوية البلاسي وزاوية الأزرق بظاهر القدس من جهة القبلة، والزاوية الأدهمية تحت مقبرة الساهرة، وزاوية وادي النصور بظاهر القدس من جهة الغرب، وشكلت كذلك نواة حقيقية لتجمع عمراني وسكاني نما واتسع بشكل ملفت للنظر، ونقصد بذلك «شرفات»، والزاوية القلندرية بوسط مقبرة ماملأ، وبها «أبنية عظيمة» وقبة محكمة البناء، والزاوية الكبكية وهي عبارة عن قبة محكمة البناء تنسب إلى الأمير علاء الدين أيدغدي المدفون بها، وزاوية الشيخ شمس الدين البغدادي (توفي ٨٨٥ هـ - ١٤٨٠ م)، وتقع بظاهر القدس قريباً من القلعة، وعمّر على ظاهرها طبقة مرتفعة، جعلها سكناً له. إن وجود هذا العدد الكبير من الزوايا خارج الأسوار يؤكد ازدهار النشاط العمراني خارج أسوار القدس من جهة، ويعكس مدى النشاط الخيري والتعليمي والروحي الذي

زخرت به الزوايا، في ظل وضوح الرسالة التي وجدت من أجلها الزاوية باعتبارها مؤسسة دينية خيرية اضطلعت بأنشطة وأهداف تقيفية وتعليمية، وهذا ما يقودنا إلى الاستنتاج المنطقي بوجود العمائر والمباني السكنية، بغض النظر عن طبيعة الأشكال التي انتظمت فيها، وبالتالي وجود حالة من التوسع العمراني المبكر خارج الأسوار. بالإضافة إلى تلك المقابر بظاهر القدس، كالساهرة بظاهر مدينة القدس من جهة الشمال إلى جانب طور زيتا، ومقبرة باب الرحمة بجوار المسجد الشرقي فوق وادي جهنم، وفيها التربة التي عمرها الأمير قانصوه اليحياوي، وتشتمل على إيوان به مدفنان، وأكمل عمارتها سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٩٠ م عندما استقر في نيابة الشام، وذلك عندما بنى الحوش الشمالي والبوابة وحفر الصهرج وبنى المتوضاً،^{١١٩} والتربة عبارة عن منشأة معمارية، ذات شكل مقبب، يقيمه أحد السلاطين أو الأمراء ليكون مدفناً له ولأسرته، وقد يكون حجم البناء كبيراً بحيث يشتمل على بعض الأجنحة للإقامة المؤقتة، وقد يتضخم مبنى التربة وتتسع مرافقه وأوقافه لدرجة تستدعي إشراف قاضي القضاة.^{١٢٠} ونجد كذلك وصفاً للمشاريع المائية خارج السور، مثل بركة ماملأ في وسط

١١٩ المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠١، ٢٠٠، ١٩٠، ١٤٧، ١٦٥، ١٦٤، ٤٨، ٤٦؛ الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثاني، ص ٣٧٧-٣٧٧.

الزوايا: ويطلق عليها الخوانق. وعرفت في العهد العثماني بالتكايا. ووجدت مئات الزوايا في مختلف أنحاء فلسطين. وهي على الأغلب مؤسسات شخصية. تنشأ باعتبارها مقراً لأحد الأتقياء، فيجمع فيها حوله جماعة من التلاميذ. وتشتغل على مصلى وأحياناً مكتبة. وتختلف عن الخوانق والربط. بأنها أصغر مساحة. ولكنها أكثر عدداً. كما أن الزوايا أقدم عهداً. وقد نهضت الزوايا بأنشطة وأهداف تعليمية. حتى إن كثيراً من المدارس في فلسطين كانت تدعى زوايا والعكس صحيح. وللمزيد حول الموضوع. أنظر: الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثاني، مادة «الخوانق والربط والزوايا». ص ٣٧٤-٣٨٤. والمجلد الأول. «مادة تكايا». ص ٥١٤-٥١٦. وادي النصور: يقع ظاهر القدس من جهة الغرب. اتخذ السيد بدر الدين بن محمد (الحسيني) مستقراً له ولعائلته. ومقراً لزاويته. فتبعه كثير من مريديه. ومع مرور الوقت ازداد عدد القاطنين من ذريته ومن غيرهم في وادي النصور. حتى ضاقت بهم المنازل. فقام حفيده السيد عبد الحافظ بالانتقال إلى منطقة قريبة عرفت بشرفات. نسبة إلى «السادة الأشراف (الشرفا) أولاد السيد أبي الوفا». وشرفات قرية تطل على مدينة القدس. وتبعد عنها أقل من ٥ كم. واكم عن بيت صفافا. وعلى مسافة قريبة من خط الهدنة. يعود الفضل في عمرانها إلى العائلة الحسينية التي انتقلت إليها من وادي النصور المجاور في القرن السابع الهجري. أنظر: الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ١٤٦-١٤٧؛ شراب، معجم بلدان فلسطين، ص ٤٦٧-٤٦٨.

١٢٠ عنامة، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص ٤١٢ - ٤١٣.

١١٧ أمين أبو بكر ملكية الأراضي، ص ٣٤٩ - ٣٥٠.

١١٨ الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٥٠، ٥٥. أنظر وصف مجير الدين لأبنية وعمائر القدس المشهورة ومعالمها ومشاهدتها في الصفحات من ١١ - ٦٠.

مقبرة ماملا، وبرك المرجع (برك سليمان) بالقرب من قرية أرتاس (جنوب غرب بيت لحم)، والقناة التي تزود المدينة بالمياه وتعرف بقناة العروب أو قناة السبيل، وبركة السلطان الواقعة بظاهر القدس من جهة الغرب، ثم يصف مجير الدين تلك البساتين الغطاء التي تحيط بالقدس من جميع الجهات وتوجد بمختلف أنواع الفواكه من عنب وتين وتفاح وغيره، كأرض البقعة، الواقعة بظاهر القدس نحو الجنوب الغربي، والتي يعتبرها من أحسن الأماكن، وكان صلاح الدين قد أوقف أرضها على الخانقاه، وذكر مجير الدين أن «شرف الدين عيسى بن غانم الأنصاري، قاضي القدس وشيخ الخانقاه الصلاحية، هو الذي حكر أرض البقعة ظاهر القدس الشريف، الجارية في وقف الخانقاه المذكورة، في سنة ٧٩٣، وصارت كروماً، وزاد بذلك ريعها لجهة الوقف، ورجب الناس فيها، وكثر الانتفاع بها»، وفي ذلك دلالة واضحة بأن هذه المنطقة (البقعة)، كانت عامرة ومأهولة، بحيث شكّلت نواة لحي سكني، أو منطقة سكنية منذ أواخر القرن ٨ هـ / ١٤ م، والأهم من ذلك هو وصفه لتلك القصور التي تحتضنها هذه الحقول والبساتين، وفي ذلك يقول: «وفي هذه «البقعة» وغيرها أيضاً قصور مبنية بالبناء»، ووصف مجير الدين هذا يرقى إلى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وهذا الحي الذي عرف بحي البقعة، استمر حياً عربياً خالصاً حتى سنة ١٩٤٨ م.^{١٢١}

وأخيراً، نكتفي بالإشارة إلى ثلاث منشآت عمرانية خارج السور، لعلها شكّلت نواة لتوسع عمراني مبكر، وبالتالي نشوء أحياء ومحلات سكنية خارج الأسوار: الأولى، خان بني سعد بظاهر القدس، الذي شكّل نواة لمحلة سكنية، نسب إليها الشيخ المعمر إبراهيم بن أحمد بن فلاح

باب الساهرة. في أوائل القرن الثامن عشر. إشارة واضحة إلى أن البناء خارج الأسوار لم يتوقف. لكن يبدو أن مستوى نشاطه قد أخذ في التراجع. وشهدت بعض أنحاء مدينة القدس اختفاء لبعض العمائر والقصور. وقد ذكر مصطفى أسعد اللقيمي في رحلته «سوانح الأناضول» إلى وادي القدس. أنه حل ضيفاً على الشيخ محمد الخليلي في قصره الكائن بالبقعة (١٧٣٠م). وأشار إلى تلك القصور التي اختفت معالمها. مع توالي الأيام وتعاقب السنين. ولم يبق إلا آثارها. ولعل اختفاء كثير من هذه القصور كان في سياق الأوضاع التاريخية وتطور الأحداث. وما تتضمنه من انعدام للأمن وتوالي المحن. وانبات الصراعات القبلية والحروب الأهلية. والحملات والغزوات الخارجية. والثورات والتمردات الشعبية وهو ما أصبح واضحاً في نهاية القرن الثامن عشر وطوال النصف الأول من القرن التاسع عشر. فتراجعت. من دون شك. مكانة المدن. وخصوصاً منذ حملة نابليون سنة ١٧٩٨. وما أعقبها من أحداث وتطورات متعددة. بالإضافة إلى الكوارث الطبيعية. كالأوبئة والسيول وتراكم التلوج والزلازل وغيرها. فكل ذلك أثر سلباً على الأحوال العمرانية ومكانة المدن والتجمعات السكنية. بل إن هناك قرى عديدة في فلسطين. في هذه المدة. قد تعرضت للخراب. ولم تعد مأهولة. فليس غريباً في ضوء ما أوردناه. أن نجد عارف العارف في معرض حديثه عن تلال القدس وجبالها. وتحديداً عندما يأتي على ذكر القطمون والبقعة. يقول: «ظلت (البقعة) خالية من العمران والسكان إلى أن أنشئ الخط الحديدي بين القدس وبيافا ١٨٩٢م وبعد أن تم إنشاء الخط بدأ العمران. وكثرت المنازل. وانتشر السكان.....». فإذا كانت البقعة خالية من العمران والسكان حتى سنة ١٨٩٢. بحسب العارف. إلا إن ذلك لا يعني توقف العمران وانعدام التواجد السكاني خلال المراحل التاريخية السابقة. كما أن ما ذكره العارف بحاجة إلى مزيد من البحث والدراسة للوقوف على حقيقة الأمر. أنظر: سميح حمودة. **تعميرات الشيخ محمد الخليلي**. ص ٨٧ - ٨٩؛ أمين أبو بكر. **ملكية الأراضي**. ص ١٠٧ - ١٠٨؛ العارف. **المفضل**. ص ٤٤٤.

أود الإشارة إلى أن الشيخ عبد الغني النابلسي. قد ذكر في رحلته إلى القدس. سنة ١٦٨٩ بعض العمائر خارج الأسوار بصورة عابرة. مثل الزاوية الجراحية (الشيخ جراح). التي اشتملت على مدرسة. وجبل الطور وما به من المقامات والمشاهد والمساجد والكنائس. وذكر بعض القصور القائمة خارج الأسوار كقصر صالح أفندي العسلي (ابن العسلي). وسجل إعجابه بالبناء. من حيث علوه. ووجود حوض ماء يتوسطه نافورة. بالإضافة إلى أن القصر قد بني من الرخام. ولكن النابلسي لم يحدد موقع القصر. لكنه كان في وسط أحد البساتين. وجاء ذكر قصر آخر. هو قصر الشيخ يحيى الدجاني. على جبل صهيون. قريباً من باب الخليل. ويفهم من الوصف. أنه كان بجوار القصر أو قريباً منه مجموعة من البيوت والبساتين. وفي ذلك يقول: «..... حتى وصلنا إلى قصر واسع الأطراف. مؤطد الأكتاف. مطل على البيوت والبساتين.». أنظر: عبد الغني النابلسي. **الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية**. تحقيق أكرم العلي. ص ١٩٥. ٩٦ - ٣٠٤ - ٣٠٥.

١٢١ الحنبلي. **الأناضول الجليل**. ج ٢. ص ٤٦. ٤٨. ٥٨. ٦٠. ٦٢. ٦٥. ٩٤. ٩٩. ١٢٧. ٢٠٠ - ٢٠١. ٢٨٤. ٣٢٣. ٣٣٠ - ٣٣١. العروب. تقع على مسافة ٢٢ كم جنوب القدس. بها مجموعة من عيون الماء الفزيرة. التي كانت تتجمع في بركة تسمى «الشاط». ثم تجري هذه المياه ومياه ينابيع أخرى في قناة تصب في برك سليمان (المرجع). ثم يخرج المياه من هذه البرك ليلتقي بمياه عيون أرتاس. ثم تجري المياه جميعها في قناة واحدة تصل بيت لحم أولاً. ومنها إلى القدس. ويطلق على الجزء من القناة. ما بين العروب نفسها. وبرك سليمان «قناة العروب». أما ما تبقى من القناة. وهو ما بين برك سليمان والقدس. فهو ما يطلق عليه «قناة السبيل». وإذا ما ذكرت قناة العروب انصرف الذهن إلى القسمين. وكان الماء الذي يصل إلى القدس عن طريق هذه القناة. يجمع في آبار وأسبلة في ساحة الأقصى. وفي الأحياء المجاورة. وذكر الدكتور خليل عثمان أن قناة السبيل كانت تزود بركة الظاهر ببيرس بالماء. بالإضافة إلى «الأناضول الجليل». ج ١. الصفحات أعلاه. أنظر: العارف. **المفضل**. ص ٤٣٧ - ٤٣٨؛ عثمان. **فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي**. ص ٤٢٣ - ٤٢٥؛ شراب. **معجم بلدان فلسطين**. ص ١١١. ٥٣١. وللمزيد عن الأحياء العربية خارج أسوار مدينة القدس. ومنها حي البقعة. أنظر: روشيل ديفيس. **نمو الجوالي في القدس الغربية ١٩١٧ - ١٩٤٨**. في: سليم تماري (محرر). **القدس ١٩٤٨: الأحياء العربية ومصيرها في حرب ١٩٤٨**. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية. ٢٠٠٢. ص ٦٩ - ٧٥ (الملحق).

لعل في قيام الشيخ محمد الخليلي ببناء قصر في منطقة البقعة. جنوب غرب المدينة. في أواخر القرن ١٧م. وآخر قبالة

إن ما تتبعناه، أعلاه، يعكس نشاطاً عمرانياً مبكراً خارج الأسوار، وحالة من الازدهار والتنوع في إقامة المنشآت المعمارية، ويمثل البدايات المبكرة لنشوء الأحياء والمحلات السكنية، كما يظهر صورة حية لأنشطة وفعاليات متنوعة: إقامة سُكنى؛ وأنشطة دينية روحية؛ وفعاليات تعليمية تثقيفية واجتماعية خيرية؛ بالإضافة إلى الأنشطة والأعمال الاقتصادية من زراعة مزدهرة، تمثلت في تلك البساتين والكروم التي جادت بالفواكه والغلال، وما يرتبط بذلك من تسويق وتصنيع وتخزين، وغيرها كثير.

«السعدي»، الذي توفي سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٢، إن نسبة هذا الشيخ إلى خان بني سعد، يعني بكل وضوح أن الخان قد شكّل نواة لحي سكني خارج الأسوار، لعله الحي الذي يعرف حالياً بحي سعد وسعيد، ويبعد مسافة قصيرة عن باب العمود باتجاه الشمال، وفيه الجامع الذي يعرف بجامع سعد وسعيد أيضاً، وقد حدّد علي سعيد خلف موقع مبنى الخان: «مكان معمل الخزف الفلسطيني مقابل القنصلية الأمريكية العامة»، وأكد المؤرخ عثمانة حقيقة نشوء محلة سكنية بجوار الخان؛^{١٢٢} والثانية، هي قرية دير أبي ثور، الواقعة بحسب مجير الدين الحنبلي، بجوار البقعة من جهة الشمال، وبها الدير الذي ينسب إلى الشيخ أحمد أبي ثور، وقد وقف الدير والأراضي المحيطة به (القرية) عليه وعلى ذريته الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين في سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م، وقد اعتبرها مجير الدين قرية، وقال إنها قريبة من باب الخليل، ويبدو أنها كانت حياً أو محلة سكنية خارج السور، وهو ما يعرف اليوم بحي الثوري؛^{١٢٣} أما الثالثة، هي برج العرب، الواقع بظاهر القدس على الطريق، المؤدي إلى قرية لفتاء، ولعله كان رباطاً، وقد ذكره مجير الدين في معرض حديثه عن الشيخ الكمالي، الذي دفن بظاهر القدس عند هذا البرج، ولعله كان نواة لمحلة سكنية، تماماً كخان الظاهر. إن العمائر والمشاهد والمعالم خارج سور القدس عديدة جداً، لا يتسع المجال لذكرها، وبحسبنا قول مجير الدين الحنبلي: "وبظاهر بيت المقدس عدة أماكن ومشاهد مشهورة مقصودة للزيارة، يطول ذكرها، ويخرجنا عن حد الاختصار".^{١٢٤}

عن حد الاختصار. وفيما ذكرناه كفاية». وعندما يأتي بعد ذلك على ذكر جبل طور زيتا وهو الجبل الشرقي المشرف على بيت المقدس. يستشف من وصفه، أنه كان مأهولاً ومعموماً. فيذكر أنه كثير الشجر والظل. وأن صلاح الدين الأيوبي قد أوقف أرضه على بعض الصالحين سنة ٥٨٤ هـ. ويتابع مجير الدين الحنبلي قوله: «وبطور زيتا شجرة خرنوب عندها مسجد لطيف. وتحت المسجد مغارة مأنوسة. ويقصد الناس هذا المكان للزيارة. وتسمى هذه الشجرة خرنوب العشرة...». و يأتي على ذكر الكنائس في هذا الجبل. فهناك الكنيسة التي تقع على قمته. في المكان الذي يعتقد أنه مصعد عيسى عليه السلام. وهي من بناء هيلانة. ويتابع القول إن «النصارى يعظمون هذا المكان تعظيماً زائداً». ثم يأتي على ذكر قبر السيدة مريم. عليها السلام. الموجود في كنيسة الجسمانية. ويقول عنه: «وهو مكان مشهور يقصده الناس للزيارة من المسلمين والنصارى». ويتابع: «وبالقرب من قبر مريم في الوادي المعروف بوادي جهنم بذيل جبل طور زيتا قبة من بناء الروم يسميها الناس طرطور فرعون وبرجمونها بالأحجار». ولعلّ فيما أوردناه هنا دلائل أخرى على ما ذهبنا إليه في مسألة التوسع العمراني المبكر خارج الأسوار. فوجود هذه الكنائس والمقامات والمساجد والمشاهد لمؤشر على توسع عمراني مبكر خارج الأسوار في مختلف الجهات. أنظر: مجير الدين الحنبلي. الأئسن الجليل. ج ٢، ص ٤٩، ٥١، ٦٠ - ٦٢.

١٢٢ المصدر السابق. ج ٢، ص ١٦٧: علي سعيد خلف. شيء من تاريخنا. ص ١٥؛ عثمانة. فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي. ص ٤٩٩. هامش رقم ٥٤. وحول حي سعد وسعيد. أنظر: روشيل ديفيس. نمو الجوالي. ص ٧٠.

١٢٣ الحنبلي. الأئسن الجليل. ج ٢، ص ٦٠، ١٤٤ - ١٤٥. وعن حي الثوري. أنظر: روشيل ديفيس. نمو الجوالي. ص ٧١ - ٧٢.

١٢٤ المصدر السابق. ج ٢، ص ٦٦، ١٤٩.

لقد سجل لنا مجير الدين الحنبلي في مشاهداته كثيراً من العمائر والأبنية. سواء داخل السور أو خارجه. لكن أعداداً أخرى. ولعلها كبيرة. لم يأت على ذكرها. لأنه اقتصر على ذكر أشهرها. وفي ذلك يقول: «وفي المدينة عدة أماكن من الزوايا والربط والتراب لا فائدة من ذكرها. وإنما ذكرت ما هو المشهور». فعندما جاء على ذكر الكنائس والأديرة. ذكر أنها تبلغ العشرين. لكن أربعة منها. بحسب قوله. هي الأهم على الإطلاق عند المسيحيين. وهي: القيامة. صهيون. مار يعقوب. والمصلبية. وجميعها كنائس قديمة بنيت زمن الروم (البيزنطيين). وما لأنها تقع خارج الأسوار. بظاهر القدس من جهة الغرب. وهي خاصة بطائفة الكرج. وبعد ذلك يقول: «ولو شرعنا نذكر ما في بيت المقدس من الأبنية والأماكن لطال الكلام وخرجنا